الختم
الكرزي
يسفين الوصلي

ⓒ كينغدوم أوف بوكس ، ١٤٤٧هـ

الموصلي ، نيفين
الختم الكرزي " مملكة شرهوت ". / نيفين الموصلي - ط١. .-
الدمام ، ١٤٤٧هـ

٢٨٨ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٧/٧٨٨٣
ردمك: ١-٩-١٨٤٩-٠٦-٦٠٣-٩٧٨

شركة كينغدوم أوف بوكس
KINGDOM OF BOOKS PUBLISHING COMPANY
kob_pub kob.pub
للنشر تواصل معنا
kofb.pub@gmail.com
+966581103033
+966597777444
www.kingdomofbook.com
المملكة العربية السعودية - الدمام

التوزيع : دار هديس للنشر والتوزيع
الإمارات العربية المتحدة - الشارقة
+971585569979

جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق إستعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون اذن خطي من الناشر
جميع العبارات و الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر

الختم الكرزي

«مملكة شرهوت»

نيفين الموصلي

nevenmousli
neven261
Nanokhwater2019

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

كلَّ اللّعنات تبدأ بهمسٍ صغير

وعندما يُفتح الختم الكرزي، لا يعود شيءٌ كما كان.

نيفين الموصلي

إهداء

إلى اللَّيل حين يُصبِحُ كتابًا مفتوحًا على أسرارٍ لا يقرؤُها سوى العابرين على حافَّة الحلم..

وإلى الكوابيس حين تتحوَّلُ إلى حكايةٍ تبحثُ عن خلاصِها بين أوراقنا، إلى الأرواح التي تهيمُ في العتمة، تكتبُنا بالنُّدوب وتتركُ لنا أثرَها في الحلم، إلى أنين قلبي، وإلى كلِّ صديقةٍ كانت مرآة الرُّوح حين انطفأ الطريق، إلى العين التي سهرت معي حين أثقلني السَّرد، وإلى القلب الذي صبرَ على العتمة كي أكتبَ نورَها وكانت همساتُه لي في وسط ضجيجٍ روايتي عُمرًا جديدًا يولدُ مع الكلمات..

لعلَّ القارِئَ يجدُ في هذا الظَّلام شرارةَ نورٍ تخصُّه وحدَه.

الفصل الأول:
حين يُفتح الختم الكرزي

كرزة في كوابيسي، وزينة في الواقع ..

كانت عيادة الدكتورة مجدولين في ذلك اليوم تضجّ كخلية نحلٍ لا تعرف السكون، خطواتٌ سريعة تتقاطع في العيادة، ووجوهٌ شاحبة تحملُ أسئلةً معلَّقة تبحثُ عن يقينٍ ضائع، وأخرى مرهقة تلاحقُ خيطًا واهيًا من الأمل في نهاية نفقٍ طويلٍ يزدادُ عتمةً.

ومجدولين كعادتها، كانت تتحرَّكُ بين جلساتها بخطًا واثقة، وهدوءٍ يشي بطمأنينةٍ متجذِّرة تستمدُّ قوَّتها من علمٍ راسخٍ وخبرةٍ صقلت شخصيَّتها، ومن قلبٍ نقيٍّ لا يعرفُ إلا العطاء.

تنصتُ وتحلِّلُ ما تسمعُ بعمقٍ يلامسُ الجذور، ثم ترشدُ مرضاها برفقٍ وحكمة.

إلا أنَّ شيئًا خفيًّا بدأ يتسرَّب إلى روحها منذ بضعة أيَّام، أخذ يوشِّحُ عالمها بلونٍ غريب لم تألفه من قبل. لونٍ يختلطُ فيه الغموض بالدهشة، كأنَّه ينذر بتحوُّلٍ قادم.

تسلَّلت إلى حواسِّها نسمةٌ باردة ولزجة كضبابٍ خفيف يتكاثف ببطء، حتَّى دبَّ شعورٌ غريبٌ في قلبها، كأنَّ عينًا خفيَّة تراقبُها من مكانٍ مجهول، تُحدِّق فيها دون أن تراها، ثم ما لبثت أن بدأت تسمعُ -أو هكذا تخيَّلت- همسًا خافتًا بلغةٍ لا تفهمُها، يتردَّدُ صداه في زوايا مكتبها حين تخلو بنفسها، وتتراقَصُ الكلماتُ في رأسِها كألسنة لهبٍ صغيرة تتركُ في جَسدِها قشعريرةً تتسرَّبُ حتَّى عِظامِها.

لاحظت السكرتيرة وعد، ذراعُها اليمنى في العيادة وصديقتها الوفيَّة شرودها المتكرِّر فتوقَّفت أمام مكتبها بقلق وسألتها:

- «دكتورة، هل كلُّ شيءٍ على ما يُرام؟

تبدين متعبةً قليلًا هذه الأيام، وشاحبةً أكثر من المعتاد».

ابتسمت مجدولين ابتسامةً باهتة، كقمرٍ يحاولُ شقَّ طريقه عبر سُحبٍ كثيفة:

- «لا تقلقي يا وعد، مجرَّدُ إرهاقٍ بسيط، ضغطُ العملِ كبيرٌ كما تعلمين».

لكنَّها كانت تعرفُ في أعماقِها أنَّ الأمرَ أعمقُ وأخطرُ من مجرَّدِ إرهاقٍ عابر. كان هناك شيءٌ ما ينمو في الظلام، كبذرةٍ سامَّة بدأت جذورها تتشعَّبُ في تربة روحها، وخلال ساعات العمل المعتادة بدأت المكالماتُ الهاتفيَّة الغريبة تتواتَرُ على العيادة.

كانت فتاةً يافعة، يرتجفُ صوتُها بين الخوفِ واليأس، وتطلبُ موعدًا عاجلًا وشخصيًّا مع الدكتورة مجدولين، لكنَّها ترفُضُ الكَشفَ عن أيِّ تفاصيلَ أخرى، تاركةً وراءَها شعورًا مُتصاعِدًا بالريبةِ والقلق.

كانت مجدولين في كلِّ مكالمة تسمعُ وعد وهي تحاولُ استدراجها لمعرفة بياناتها الشخصيَّة، لكنَّ الفتاة تراوغُ بمهارة وتتهرَّب، وتنهي المكالمة فجأة، حتَّى جاء ذلك اليوم الذي خرجت فيه كلمات الفتاة بصوتٍ مكتوم أثار قلق وعد ومجدولين:

- «أرجوكِ... الأمرُ يتعلَّقُ بحياةٍ أو موت، أخبريها فقط أنَّ اسمي

كرزة في كوابيسي، وزينة في الواقع».

زائرة الوادي ورائحة البحر الهائج ..

كانت وعد قد حدَّدت موعدًا للفتاة الغامضة مع الدكتورة مجدولين، ووضعت على مكتبها ملفًّا هزيلًا ثم غادرت دون أن تنطقَ بكلمة، مدَّت الدكتورة يدها لتفتحه، فلم تجد فيه سوى ورقة وحيدة يتيمة، كُتبَ عليها جملة قصيرة، وعندما وقعت عيناها على كلماتها شعرت بالهمس القديم يتفجَّر في رأسها دفعةً واحدة، كدبيب نحلٍ هائج، أو كأنَّ عشَّ دبابير انقضَّ على روحها فجأة، التقطت سمَّاعة الهاتف وضغطت زرَّ مكتب وعد:

- «تعالي فوراً..».

دخلت وعد مسرعةً، وملامح وجهها ترتدي القلق:

- «هل حدث شيء دكتورة؟»

رفعت مجدولين رأسها المثقل بما في الورقة من كلمات، وفركت عينيها كأنَّها تطردُ شيئًا خفيًّا،

ثم قالت بصوت خافت:

- «ما هذا الملف العقيم؟»

أجابت وعد متردِّدة:

- «هذا ملفُ زينة، إنَّها تنتظرُكِ في الخارج، ملامحُها شاحبة وغريبة بطريقةٍ تثيرُ القشعريــرة، لــم تزودنــي بأيِّ معلومــةٍ شخصيَّة عنها إلا هذه الجملة الغريبة التي تحمل اسمها وتوحي بأنَّها تحتاجُ لمساعدةٍ عاجلة، هل أدخلُها؟»

أومأت مجدولين بصمت، كأنَّها تخضعُ لشيءٍ فُرِضَ عليها، لكنَّها لا تملكُ سوى مواجهته.

استندت إلى ظهر مقعدها وعيناها تراقبان الباب، كأنَّها تستعدُّ لعبور عتبةٍ لا رجعة منها.

دخلت «زينة» وقد رافق حضورَها صمتٌ يحمل الرَّهبة والترقَّب.

لم تكن مجرَّد فتاة، بل شبحًا يمشي على قدمين، أو زهرةً بريَّة اقتلعت بعنفٍ من تربتها وتُرِكَت لتذبُلَ تحت شمسٍ قاسية. كان الشحوبُ يغطِّي وجهها كقناعٍ من شمعٍ أبيض، والهالاتُ الرماديَّة الداكنة حول عينيها تحكي عن ليالٍ طويلة من الأرق والرعب الذي لا يطاق.

بدت خطواتها متردِّدة وبطيئة، كأنَّها تخشى أن تتركَ أثرًا على أرض الواقع الهش الذي تعيشُ فيه، أو كأنَّ قوَّةً خفيَّة تُثقِلُ قدميها وتجعلُ كلَّ خطوةٍ تبدو كأنَّها تسلُّقٌ لجبلٍ شاهق.

جلست على حافَّة الكرسي، ممسكةً حقيبتها البالية بقبضةٍ متوتِّرة، وعيناها الكبيرتان تفيضان بخوفٍ عميق، بينما راحت تتفحَّصُ أرجاء المكتب بحذرٍ وترقُّب كأنَّها تتوقَّعُ ظهورَ شيءٍ من العدم.

- «أهلاً بكِ يا زينة».

قالت مجدولين بصوتها الهادئ الذي طالما بعث الطمأنينة في قلوبِ مرضاها، وحاولت أن ترسمَ على وجهها ابتسامةً خفيفة:

- «أخبريني، كيف يمكنني مساعدتك؟»

- «قصَّتي يا دكتورة تبدو كأنَّها فصلٌ من كتابٍ ملعون، أخشى ألا تصدقيني، أو تظنِّي أنَّني مجنونة».

أجابتها مجدولين بلطف:

- «كلُّ ما يقال سيبقى هنا بيننا، تحدَّثي بحريَّة..».

أخذت زينة نفسًا عميقًا، كغريقٍ يستنشقُ آخر ذرَّة أوكسجين قبل أن يبتلعهُ البحر الهائج، ثم بدأت تسردُ حكايتها. تحدَّثت عن بيت جدِّها المتوفى في جنوب المملكة، ذلك البيت الحجري العتيق الذي أسر قلبها منذ طفولتها،

رغم وحشة لياليه الحالكة. وعن الوادي القريب الذي يزهو بألوانٍ مدهشة، وأنَّها استأذنت والدتها في أحد الأيَّام للنزول إلى ذلك الوادي الكبير،

فاشترطت أن يرافقها أخوها الأكبر سالم، وهكذا انطلقا معًا حتَّى وصلا إلى ظلِّ شجرة حماط عظيمة، هناك بين الأزهار التي تنفثُ عبيراً لم تعرفه أنفاسها من قبل، اختفى أثرُ سالم فجأة،

نادته مرارًا لكنَّ صدى صوتها ارتدَّ إليها في كلِّ مرَّة بلا جواب، فجلست تضمُّ قدميها والخوف يتسرَّبُ إلى عروقها كأنَّه سمٌّ بطيء.

وفجأة، رأت رجلًا يقتربُ منها، كطيفٍ خرج من عمق كابوس. كان طويلَ القامة، ينسدلُ على جسده وشاحٌ أسود، لحيته قاتمة كظلام الليل، وعيناه حادتان، كأنَّهما سيفان مسنونان يشقَّان صمت المكان، وحاجباه الغليظان يلوحان كخطَّين من الجمر.

كانت خطواته بلا صوت، كأنَّ الأرض نفسها لا تستطيع أن تحمله، بينما هبَّت رائحته عليها كموجٍ هائج، تحملُ معها رطوبةَ البحرِ المالحة وغموضَ الأعماق.

بدت بشرته كالنُّحاسِ المعتَّق، أو كالجمرِ الخامد في انتظارِ نفخة حياة، تتلألأُ فوقَها أساورُ وخواتمُ وقلائدُ من معادنَ وأحجارٍ لم ترَ مثلها من قبل.

وقف أمامها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ مريبة، ابتسامةُ صيَّادٍ ماهرٍ لمح للتو فريسته،

ثم قال بصوتٍ غليظ يتردَّد صداه كأنَّ الوادي قد أذعن للأمر:

- «أنا أعرفك منذ زمنٍ بعيد يا زينة...

أو لعلَّ الأصح أن أقول: يا كرزة. منذ هذه اللحظة، أنتِ خادمتي المطيعة، فأنا سيِّدُ هذا

الوادي، الملك شرهوت».

القلادة وختم الروح الأسيرة..

تابعت زينة حكايتها، ونبرتها تتأرجحُ بين صوت الفتاة الخائفة والخادمة الملعونة، بينما كانت مجدولين تنصتُ وقلبُها يرتجفُ بين أضلاعِها، وعقلُها يحاولُ التمسُّكَ بالمنطقِ الطِّبِّي، لكنَّ رعشةً غامضة بدأت تتسلَّلُ إلى أعماقها كظلامِ ليلٍ موحش.

- «ثم أسدل وشاحه الأسود المشبع برائحة البحر والظلام على وجهي، فما لبث أن غيَّبني عن العالم، وانزلقتُ إلى غيبوبةٍ ثقيلة، كأنَّني أغرقُ في نومٍ أعمق من العمق نفسه».

فتحت عينيها لتجدَ نفسها في وادٍ غريب يبعثُ على الخوف والدهشة معًا، كلُّ شيءٍ فيه يكتسي بلونِ الكَرزِ الدَّاكن، والهواءُ يثقِلُ صدرَها برائحةِ الكبريت الممزوجة بمسكٍ معتَّق.

ارتفعت من حولها أشجارٌ عملاقة، تشبِهُ أوراقُها ألسنة لهبٍ متجمِّدة، بينما اكتست الأرض بحجارةٍ كرزيَّة اللون كأنَّها قطرات دمٍ متصلِّبة، حتَّى السماءُ لم تسلم، فقد غطَّاها غشاءٌ كرزي رقيق جعلها تشعرُ كأنَّها تنظرُ من خلال قطعة ياقوتٍ ملعونة، تضجُّ بفتنةٍ غامضة ورعبٍ كامن.

وفي قلب ذلك الوادي، ارتفعَ عرشٌ هائل، منحوت من صخورٍ عملاقة اتَّخذت هيئة رؤوس وحوشٍ غاضبة، كأنَّها تستعدُّ لالتهام من يجرؤ على الاقتراب.

جلس شرهوت مُتوَّجًا بغروره وسلطانه، يملأُ المكان بهيبته، وحين حرَّك يده أمر حجارة الوادي أن تنهضَ أمامَهُ، فتشكَّلت كما يشاء، كأنَّ الأرضَ نفسَها تخضعُ لإرادته.

مدَّ يده وألقى عليها ختمًا نحاسيَّ اللون، نُقِشَت عليه رموزٌ معقَّدة:

- «هذا الختمُ يا كرزة علامةُ ولاءٍ لخدمي المخلصين إلى الأبد».

وبمجرَّد أن لمسته شعرت أنَّ صاعقةً أصابتها واجتاحت جسدها قوَّةٌ مظلمة، كأنَّ جزءًا منها قد مات في تلك اللحظة ليولدَ مكانُه كائنٌ غريب، أقوى وأشدُّ ظلامًا وخبثًا.

استيقظت بعد ذلك في سريرها في بيت جدها، بعد ثلاثة أيَّام من حمى شديدة كادت أن تقتلها.

كانت أسرتُها مجتمعةً حولها بالبكاء والدعاء، أمَّا شقيقُها سالم، فقد كان طبيعيًّا تمامًا، لا يتذكَّرُ شيئًا مما حدث في الوادي، قالت بصوت خشن:

- «لقد حذف شرهوت من ذاكرة أخي كلَّ ما جرى في ذلك اليوم، لكنَّه ترك بصمته الملعونة في روحي أنا، بصمةٌ لا يمحوها الزمن ولا يغسلها النسيان».

توقَّفت للحظة، ثم تابعت بنبرةٍ أكثر عمقًا:

- «أنا زينة يا دكتورة، تلك الفتاة التي تحاولُ أن تعيشَ حياةً طبيعيَّة، وأنا كرزة أيضًا، خادمةُ الملك شرهوت، الذي يهدِّدُني بمصير عائلتي إذا لم أطع أوامره».

انحنت مجدولين قليلاً للأمام، وهمست بحذر:

- «وماذا يريد منك يا زينة؟ لماذا اختارك أنتِ تحديدًا؟»

رفعت زينة رأسَها، وفي عينيها ذلك البريق الأحمر المخيف:

- «إنَّه يبحثُ عن شيءٍ فقدَهُ منذُ زمنٍ بعيد؛ زوجته ذهبه، وهو يرى فيكِ طيفها، وشبيهتها والوعاء الذي سيعيدها إليه».

تسمَّرت مجدولين في مقعدِها، كأنَّ الكلمات قد جمَّدت الدم في عروقِها:

- «ماذا قلتِ؟ ولماذا أنا؟ وما علاقتي بملكك شرهوت هذا!»

ابتسمت زينة ابتسامةً باردة، لا حياة فيها:

- «لأنَّ المرآة الرماديَّة اختارتكِ، وأنتِ الآن جزءٌ من قصَّته..».

مدَّت يدها إلى حقيبتها بحذر، وأخرجت قطعة قماشٍ داكنة، فتحتها ببطء، لتكشف عن قلادةٍ نحاسيَّة كبيرة وثقيلة، تتوهَّجُ بحرارةٍ خافتة كأنَّها تنبضُ بحياةٍ مظلمة، ثم همست بصوتٍ بدا لمجدولين كأنَّه انعكاسٌ لكوابيسها:

- «هذه قلادة سيِّدتي ذهبه، وقد أُمرتُ أن أسلِّمكِ الأمانة».

تراجعت مجدولين للخلف فورًا، ورفعت كفَّها:

- «أعيديها من حيث أتت، لا أريدُها».

لكن ملامح زينة تغيَّرت في لحظة، وأصبح وجهُها أشدَّ صلابة، تلمعُ عيناها بوميض جمرٍ خفي يوحي بجديَّتها التي أخذت تتصاعد، وبخطوةٍ سريعة انحنت للأمام وأمسكت معصم مجدولين بقوَّة تفوقُ جسدها النَّحيل، وهمست بصوتٍ بارد:

- «هذا ليس خيارك، بل مصيرك».

حاولت مجدولين سحب معصمها، لكن قبضة زينة كانت صلبةً كالأصفاد المعدنيَّة. رفعت القلادة بيدها الأخرى، ثم دفعتها بعنف إلى كفِّ مجدولين المفتوحة. وفي اللحظة التي لامست فيها بشرة مجدولين برودة القلادة النحاسيَّة الثقيلة، اجتاحت جسدها صعقةٌ حادَّة، كأنَّ تيارًا كهربائيًّا خفيًّا، وباردًا كالصقيع، تدفَّق إليها بلا رحمة. قفزت القلادة مباشرةً إلى عنقها، فشعرت بوخز ألف شوكةٍ ملتهبة تثبِّتُها في مكانها، وأنَّ نبضها صار يتردَّدُ من خلالها. حاولت أن تنزعها، لكنَّ أصابعها لم تجد سوى جلدها، كأنَّ القلادة أصبحت جزءًا منها، أمَّا زينة فقد ابتسمت وهمست:

- «الآن أصبحتِ مختارة شرهوت، لن تتركك القلادة حتَّى تكتمل مهمَّتك».

لم تكن «المختارة» تدرك أنَّ ما جرى ليس مجرَّد استلامٍ لقطعةٍ أثريَّة غريبة، بل قبولٌ لختمٍ ملعون، وتوقيعٌ على عقدٍ غير مرئي مع ملكٍ من ملوك

الجن الذي يرقد على عرشٍ من الأحزان والجنون، وهو مُستعدٌّ لفعلِ كلِّ شيء لاستعادة زوجته. رفعت زينة عينيها نحو الدكتورة وكأنَّها تريد أن تقذفَ لها سرًّا آخر يخنقُها أكثر:

- «أتعلمين كيف وصلت إلي تلك القلادة؟»

- «لا أريد أن أعلم شيئًا، أرجوكِ أخرجي هذه القلادة المسحورة من جسدي».

أكملت زينة حديثها غير مُبالية بما تحاولُ مجدولين قولَه، فلا بُدَّ لها أن تنجزَ مهمَّتها التي جاءت من أجلها، وإلا فستُحرَقُ مع عائلتها في يومٍ واحد، أو ستُنفى إلى الأبد في قصر الظلمات السبع في مملكة الجن، بين خدم شرهوت المخلصين لسلطانه الملعون.

عليك أن تسمعيني أيَّتُها المختارة، لتعرفي كم عانيتُ من لهيب الكوابيس التي كان يحرقني بها شرهوت، وجعلت منِّي شبحًا يتنفَّسُ العذاب كلَّ ليلة.

تلك الهواجس التي لا تفارقني حتى في يقظتي، سببُها القلادة التي سلَّمني إيَّاها الملك شرهوت في الليلة السَّادسة من بعد لقائي به في الوادي، وأمرني أن أُسلِّمكِ إيَّاها في مدَّةٍ حدَّدها لي، وإن تخطيتُها فلا علم لي بمصيري بعدها.

كانت تلك الليلة من أشدِّ الليالي قسوةً عليَّ لدرجة شعرت فيها أنَّني كنتُ أنامُ في حضن كابوسٍ يهوي في سماءٍ لا قمرَ فيها ولا ملامح ليل، فأسقطُ أمام عرشٍ معلَّقٍ يجلسُ عليه الملك شرهوت في الفراغ، ولا شيء حولَهُ سوى ظلِّ قلادةٍ مشتعلة يلوِّحُ بها بيده يمينًا ويسارًا، فيسحبني نحوه بقوَّتِه العفريتيَّة ويضعُ القلادة في يدي ويقول:

- «لقد سلَّمتُكِ يا كرزة قطعةً من روح زوجتي..».

ثم همس داخل أذني باسمك وقال:

- «إنَّها تسكنُ في مدينة البحر؛ المدينة التي لا ينام الضوء فيها، هي من تحملُ ظلَّ ذهبه، وهي من ستُعطِيها القلادة».

ثم أضاف تفاصيل المكان:

- «عيادة الياسمين النفسيَّة، مدينة جدَّة، المبنى الرمادي، الطابق الثالث».

وفي صباح اليوم التالي فتحتُ هاتفي النَّقال، وبحثتُ في الإنترنت عن اسم العيادة، فوجدتُ صورتك وتفاصيل العنوان ورقم الهاتف الخاص بالعيادة، ورتَّبتُ لهذا اللقاء معك بعد ذلك.

عالم شرهوت ..

كان الملك شرهوت من نسل المردة العُتَاةِ، سلالة لا يحدُّها قيد ولا تقفُ أمامها قوَّة.

جنيٌّ جبَّار، يتدفَّقُ من وجودِه سيلٌ من طاقاتٍ غامضة، لا يملكُ البشرُ لها تفسيرًا.

بزمجرةٍ واحدةٍ منه تتصدَّعُ الصخور وتنشقُّ الأرض، وبطرفة عينه يستدعي العواصف فتزأرُ السَّماءُ وتفيضُ بالبرق والرعد.

أمَّا العقولُ الضعيفة من المخلوقات، فما هي عنده إلا خيوطٌ معلَّقة بيد لاعب دُميً، يحرِّكُها كيف يشاء، ويكسرها متى يريد.

كان يقضي الساعات والأيام، بل القرون بمقاييس البشر، في قاعته العظمى، متربِّعًا على عرشه المهيب المصنوع من عظام وحوشٍ انقرضت منذ أزمانٍ غابرة. ينوءُ جسده بثقلِ السنين، وروحُه تتآكلُ ببطء تحت وطأة الألم والعزلة.

ذلك الجنيّ الذي خشيته قبائل الجن وارتجفت الأرضُ من بطشه، لم يعد كما كان، فقد عرفَ معنى الفقد قبل أن يتذوَّقَ طعمَ الرَّاحة. منذ رحيل «ذهبه» رفيقةِ عمره، لم تعد الليالي تحملُ لهُ سوى صدى الفراغ. كانت ضوءَه وسطَ عتمةِ العوالمِ السفليَّة، يناديها بلقبٍ لا يعرفُه سواهما ،كرزة، كلَّما داعبَ خصلات شعرها الناريَّة التي تشبه لون الكرز الناضج تحت شمسٍ لا تشرقُ إلا في عالم الجن.

لم يكن لون شعرها مجرَّد لونٍ عابر، فقد كان بصمة حياتِه، ولون شغفهِ الأوَّل، وانعكاسَ ما بقي من جمالٍ في عتمةِ وجودِه الأبدي. وحين رحلت كرزته، انطفأ معها النُّورُ الأخير، وتحوَّل قلبُه إلى مسرحٍ لجنونٍ خفيٍّ ينهشُ عقلَهُ رويدًا، جنونٍ صامتٍ باردٍ كالصقيع الذي خلَّفته «ذهبه» وراءَها.

وذلك القصر، الذي كان يومًا ما يهتزُّ بأصداءِ ضحكاتِها وهمساتِها الدَّافئة، صار مقبرةً لذكرياته الحزينة، كلُّ زاويةٍ فيه تحملُ ظلَّها، وكلُّ قطعة أثاثٍ تنضحُ بلمسةٍ من يديها، وكلُّ خيطٍ من الضوء يتسلَّلُ عبر النوافذ، يرتعشُ على الجدران كأنَّهُ انعكاسٌ لطيفها. يراها في المرايا السوداء،

يسمعُ صوتها ويشمُّ عبيرها الممزوج برائحةِ البحرِ والمسك في الهواء الرَّاكد، كأنَّها ما زالت هناك، حيَّة في تفاصيلِ الفراغ الذي يزدادُ وحشةً بغيابها.

كان يتمتم اسمها بين أنفاسهِ المتقطِّعة، يناديها كما يردِّدُ الراهب تعويذته الأخيرة:

- «يا ذات الشَّعرِ الناري، يا بسمةَ الفجرِ في ليلي السرمدي..».

لكن لا الفجرُ يطلعُ بعدك، ولا الليل ينقضي.

الجنُّ لا يبكون كما يفعلُ البشر، فدموعهم ليست ماءً ينسابُ على الخدود، بل جمرٌ متَّقِدٌ في الداخل. بكاؤهم احتراقٌ صامت، لهيبٌ يلتهمُ الرُّوح قطعةً تلو الأخرى، حتَّى لا يبقى إلا الرماد الذي يتناثرُ مع أنفاسهم.

كان شرهوت يحترقُ ألفَ مرَّة كلَّما تذكَّر تلك الكلمات الحادَّة التي انغرست في داخلِه كبصمة زمنيَّة تأبى الرحيل، كأنَّها شفرات صدئة ظلَّت تنزفُ جرحًا لا يلتئم.

لم يكن وجعًا عابرًا، بل نزيفًا سرمديًّا يعيدُ نفسه في كلِّ لحظة، كأنَّه يعيشُ موته آلاف المرَّات دون أن يموتَ تمامًا. يُقال إنَّها فُقدت في حادثٍ غامض، أثناء رحلةٍ استكشافيَّة إلى أحد الأبعاد المنسيَّة في هوامش المخطوطات القديمة. هناك، في مكانٍ لم تطأهُ الأقدامُ منذ بداية الخليقة، و قيل إنَّها سقطت في «بئر النسيان الأبدي»، وأنَّ قوَّةً أعظمَ منها ابتلعتها كما يبتلعُ البحرُ سفينةً غارقة، وقيل الكثير... حتَّى صار الغموضُ حولَها أعظمَ من حقيقتها، لكنَّ الحقيقة الوحيدة التي ظلَّت تحرقُ شرهوت، أنَّ تلك الكلمات

لم تمت مع صاحبتها، بل بقيت تنبضُ في ذاكرته وتُقطِّع أوصالَهُ كلّما استدعاها، وكأنَّها لعنةٌ لا تنطفئ.

تغيَّرت ملامحه وخفت بريقُ عينه الحمراء كجمرةٍ توشكُ على الانطفاء. طال شعرُهُ الأسود الفاحم وتناثرَ بإهمالٍ فوق كتفيه، بعد ما كان يصفِّفُه بعنايةٍ تليقُ بمكانته. فقدَ الكثيرَ من رونقه، وظهرت عليه تجاعيدُ لم يعرفها عالم الجنِّ من قبل، قد خطَّها الحزنُ واليأسُ بعد دهورٍ أفناها في البحث عنها بلا جدوى.

وبينما كان غارقًا في محيطِ كآبته، راحت الألسنُ في عالم الجن تتناقلُ قصَّة جنونِه، يهمسون عن لعنةٍ ألمَّت به، أو ثمنٍ باهظٍ يدفعُه لقاء قوَّةٍ مفرطة أو خطيئةٍ قديمة.

لكن شرهوت لم يكترث، فما قيمة العالم كلِّه إن كانت كرزته قد ذبلت واختفت ..

وفي ليلةٍ مظلمة، وبينما كان يهيمُ كطيفٍ في أروقةِ قصره الكبير، مرَّ أمام مرآةٍ قديمة مصنوعة من زجاجٍ بركاني أسود، يُقالُ إنَّها تكشفُ ما وراء الحجب.

لم يكن يلتفت إليها في العادة، لكن هذه المرَّة أعاق شعورٌ غريب خطواته، وجعل قلبه يتوقَّفُ للحظة:

«نعم... هذه بلا شك ذهبه، كرزتي».

اندفع نحو المرآة كأنَّ الريح تدفعه، غير أنَّ الطَّيفَ تلاشى قبل أن تلمسَ أصابعُه المرآةَ الرماديَّة الباردة. تنهَّد ببطء، كأنَّ الزمن نفسه احتجبَ عن أنفاسِهِ، ثم همسَ لنَفسِه:

- «لا جدوى... أنتِ مجرَّد سراب، صنيعةُ عقلي المريض».

لكنَّ بذرةً مجنونة بدأت تنبتُ في تربة يأسِه، فجلسَ مع نفسه يحادثُ أفكارَهُ بدهشة:

- «إذا كان عقلي يستطيعُ استحضار طيفِها بهذه القوة عبر المرآة فربما هناك طريقةٌ لاستعادتها،

أو على الأقل العثور على شيءٍ يعوِّضُ غيابَها، شيءٍ يشبهُها إلى حدٍّ ما».

تلك الفكرة المجنونة التي غذّاها هوسه بالبديل، بدأت تسيطر عليه.

- «هل من الممكن أن توجدَ جنيَّةٌ أخرى تشبهُها؟»

تمتم في نفسه متسائلًا، لكنَّه ما لبث أن عاد لصوابه ونفى الأمر:

- «مستحيل، كرزتي لا مثيل لها».

لم تكن ذهبه مجرَّد جنيَّة بملامح جميلة، فقد كانت روحًا، وكيانًا فريدًا، بل لهيبًا حارقًا يخرجُ من عينيه من شدَّة شوقِه وحنينِه لها.

خطرت له فكرةٌ أكثرُ تطرُّفًا، جعلت جسدَهُ الناريَّ يقشعر كأنَّ كرةً ثلجيَّة أصابت رأسه...

«عالم البشر» تذكَّر قصصًا قديمة تناقلتها الأجيال عن تداخل العوالم، كائناتٌ من الجن عشقوا من بني البشر، وبشرٌ امتلكوا صفاتٍ أثارت فضول أقدم الكائنات.

«بشرية؟»، تساءل بصوتٍ مسموع كأنَّه ينطق بلعنة ثقيلة:

- «هل يمكن أن يوجدَ بين هؤلاء الضُّعفاء من تحملُ طيفَكِ يا كرزتي؟»

لكنَّ حزنه المأسوي دفعَهُ إلى التعلُّق بأيِّ قشَّةٍ من الأمل، أو لعلَّ ذلك لم يكن سوى وهمٍ يتخفَّى في هيئة حلم. في تلك الليلة حين أطبق الظلام وأطفأ جمر عينيه، اتخذ شرهوت قراره،

سيتجاوزُ الحُجب ويعبرُ البوَّابات المغلقة بين العوالم، وسينبشُ في عالم البشر ويفتِّشُ عن وجهٍ يذكِّرُه بمحبوبته، عن خُصلٍ من شعرٍ بلون الكرز المحترق، عن ضحكةٍ تحملُ في طيَّاتها صدى ضحكتها التي ضاعت مع رحيلها.

لم يكن يبحثُ عن حبٍّ جديد، فقلبه قد دُفن مع جسدها، لكنَّه كان يبحثُ عن ظلٍّ أو صدًى، عن أيِّ شيءٍ يسدُّ الفراغ الذي يكادُ يبتلعه.

لم يدرك أنَّ رحلته هذه لن تقودَه إلى ظلٍّ عابر، بل إلى مأساةٍ جديدة؛ جحيمٍ من نوعٍ مختلف، تتراقصُ فيه الرغبة المحرَّمة مع الخطر القاتل، جحيمٍ قد يحرقُ ما تبقَّى من روحه أو ربَّما يمنحه فرصةً تكادُ أن تكونَ مستحيلة.

ابتسم شرهوت لأوَّل مرَّة منذ قرون

لكنَّ ابتسامته لم تكن فرحًا

بل ارتعاشة قلبٍ يتنفَّسُ

رمادَ الحنين...

أين رآها أوَّل مرَّة؟

في حلم، أم في مرآةٍ مكسورة؟

ربَّما في ذاكرة لا تموت!

هل هي وجهٌ فقده، أم روحٌ تتحدَّاه!

ولماذا هي بالذات؟

ومن ستكونُ الوسيطة التي ستصلُ بينهما في عالم البشر؟

انعكاس البوابة ..

في قصره المظلم، وبين جدران غرفته التي تردِّدُ لحن العزاء الأبدي، وقفَ شرهوت أمام المرآة السحريَّة التي أهداها لزوجته المفقودة «ذهبه» في عيد ميلادها الناري.

كانت المرآة لا تعكسُ الوجوه، بل الأرواح وما يقابلُها من عالمِ البشر. حدَّقَ شرهوت بعينيه الملتهبتين، وراح يقلِّبُ الأمواجَ ويحرقُ المرآة بتنهيداته.

ذلك الهوس بفكرة «البديلة» أشعلَ عقلَه واستولى عليه، حتَّى لم يبقَ من وجودِه شيء.

- «أين أنت يا طيفها، يا صدى ضحكتها المتناثر في عالمي، أين سأجدك؟»

حتى توقَّفت الصورة عند بشريَّة تجلسُ على مقعدٍ حجري يواجهُ امتداد البحر الذي تعبثُ به الرياح فتثيرُ أمواجه أحيانًا، وتهدِّئهُ أحيانًا أخرى.

كانت تجلسُ بثوبِها الأبيض الفضفاض، وشالٌ رمادي يغطِّي جزءًا من شعرها ويلتفُّ برفقٍ على كتفيها، كما تتشابكُ الذكريات في عقلٍ منهك. يلامسُ الضوءُ وجنتيها فيعكسُ بريقًا يشبهُ شروقَ الشَّمسِ، بينما تتموَّجُ خصلاتُ شعرها كالبحر بين هدوئه وهيجانه. كانت متأهِّبة لكلِّ ما حولَها، عيناها معلَّقتان بالبحر، كأنَّها تهمسُ له بحبِّها وعشقِها لجمالِه السَّاحر.

اقتربَ شرهوت من المرآة وتمتمَ بصوتٍ مرتجف:

- «نعم، إنَّها تُشبهُ كرزتي».، ثم تابع بصوته المنتشي:

- «في انحناءة العنق، والمسافة بين الحاجبين، والنظرة لا تتبع الزمن بل تصنعه، في حدَّة أنفِها المغرور».

كانت تلك الدكتورة مجدولين، تحدِّقُ في البحر، وفي يدها سبحةٌ صغيرة من الخرزِ الأزرق تدوِّرُها بين أصابعِها بصمت. اضطرب البحر فجأة، فرأت ظلًّا في الماء، بلا شكل أو لون، لكنَّه كان يحدِّقُ بها، رفعت رأسها فمرَّ شيءٌ ما

بجانبها تاركًا خلفَهُ رائحة رماد، كأنَّ البحر تنفَّس أنفاسًا لا تخصه. تراجع شرهوت في قصرِه خطوةً إلى الوراء، وقال:

- «هي من ستفتحُ البوَّابة، إنَّها الوجهُ البديل، شبيهةُ من غادرتني وتركتني تائهًا من بعدها».

ثم ابتسم ابتسامةً عريضة، بفمٍ حادِّ الأطراف، لأوَّل مرَّة منذُ قرون، ووقف بكلِّ شجاعته، ونيرانُه الخامدة في جوفِه منذ زمن، بدأت بالنَّبض من جديد في جسده الناري وتوجَّه إلى «بوابة الأصداء»؛ إحدى البوَّابات القليلة التي ما زالت تربطُ عالمَه بعالم البشر. بوَّابةٌ مهترئة، يلفُّها ضبابٌ رمادي كثيف، وتصدرُ منها أصواتٌ غريبة كأنَّها أنفاسُ كائناتٍ تحتضر. تردَّد للحظة، فهو لم يعبر إلى عالم البشر منذ قرون، ثم وضع قدمَه بكلِّ قوَّته، وولجَ من البوَّابة بسرعة الموج الذي يبتلعُ كلَّ ما يقفُ بطريقه، إلى أن يهدأ ويصلَ إلى شاطئه، قال بصوتٍ يشبهُ الرَّعد:

- «من أجلكِ يا حبيبتي فقط، حتَّى لو كان الثمن هو ما تبقَّى من عقلي».

وصل شرهوت إلى عالم البشر، واتَّجه نحو واديه القديم، ذلك الوادي الذي سكنَهُ يومًا مع زوجته ذهبه، وصَبغه بلون شعرها الكرزي حتَّى أصبحَ كلُّ ما فيه ينبضُ بذلك اللون. عاش به زمنًا من السيطرة والقوَّة، فاستطاع من خلاله أن يَمُدَّ ظلاله على عالم البشر حتى غادره مجبرًا بعد أن خانه جدُّ زينة حين عقدَ عهدًا سريًّا مع أحدِ ملوك الجن المعروف باسم «دندون»، ومنذُ تلك الخيانة لم يعد شرهوت لعالم البشر، فقد غادرَهُ وهو يطوي في قلبِه نيَّة العودة والانتقام يومًا ما، وها قد جاءت اللحظة إذ سيجعلُ من حفيدة الخائن خادمةً له ووسيطةً بشريَّة توصلُهُ إلى من اختارتها المرآة، الدكتورة مجدولين.

ظهر شرهوت أمام «زينة» في الوادي كلعنةٍ قديمة، ومنذ تلك الليلة، لم يغمض لها جفنٌ دون أن يزورها طيفه. كانت كوابيسها كثيفة، يكسوها لونُ

الكرز الدَّاكن، ورائحةُ الكبريت الخانقة، وصوت همسٍ يتسلّلُ من أعماق عقلها:

- «ستعطينني ما أريد، وستكونين عيني في عالمكم».

كانت تستيقظ وهي تشعرُ بثقلٍ يضغطُ على عنقِها، ويومًا بعد يوم ازداد حضور شرهوت في حياتها حتَّى صار يقفُ على حدود وعيها، يراقبُها ويبتسم ابتسامةَ صيَّاد يعرفُ أنَّ فريستَهُ وقعت في الفخ، ولم يعد لها مهرب، ولم يفارق لياليها بعدها حتَّى سلَّمتهُ ما أراد، تلك الأمانة التي تنتظرُ شبيهة ذهبه، القلادة التي كانت رمزًا لحضورها الملكي، وعلامة قوَّتها وهي بجوار زوجها شرهوت، يوم كانت النار تخضعُ لابتسامتِها والوادي لا يعرفُ لونًا غيرَ لون الكرز المحترق الذي يصبغُ شعرها.

لم يعد النوم ملاذًا للحلم، بل أصبح بابًا إلى كابوسٍ يلاحقُها في يقظتها.

الختم الكرزي

الفصل الثاني:
بداية الكوابيس ..

الكرز يصيغُ الأحلام واليقظة ..

لم يمضِ وقتٌ طويل على لقائها بزينة، حتَّى توغَّلت الكوابيسُ في ليالي مجدولين كظلالٍ غادرة

لا تستأذنُ عند الدخول، ولا تلتفتُ للمغادرة.

لم تكن أحلامًا عابرة من نسجِ الإرهاق المعتاد أو القلق، بل عوالمَ حيَّة، تنبضُ بخطرٍ يوازي الحقيقة نفسها في وحشيَّتها. باتت تجدُ نفسَها في كلِّ ليلة تغرقُ في وادي شرهوت الكرزي،

ذلك الوادي الذي أصبح مألوفًا لها على نحوٍ مؤلم، يفرضُ عليها الخضوع ويطالبُها أن تحملَ اسمه كما حملته ذهبه، وأن تصبحَ ظلَّها، وصدى ضحكتها المفقودة.

كانت تصحو على صرخةٍ مكتومة وعرقٍ بارد يتصبَّبُ من جبينِها، وقلبُها يخفِقُ بعنف، كطائرٍ يضربُ جناحيه محاولًا الإفلات من قفصٍ لا يُرى، لكنَّ الأغرب أنَّ جسدَها كان يَحمِلُ آثارَ تلك الليالي، بقَعٌ حمراء قاتمة بلون الكرز المحترق، تظهرُ على عنقها أو ذراعيها ثم تختفي عند شروق الشمس قبل أن يلاحظَ زوجها، تاركةً إحساسًا بالحكَّة، ووخزًا غريبًا يشبِهُ الحروق.

صار الإرهاق ظلَّها، بينما تمشي الأيَّامُ ببطءٍ قاتل، حتَّى أبسط مهامها اليوميَّة باتت تتطلَّبُ جهدًا يلتهمُ ما تبقَّى من قوَّتها.

وفي أحد الصباحات الثقيلة، بعد كابوسٍ جديد أشعلَ روحَها بالخوف والتوتُّر، قادت سيَّارتها نحو العيادة وهي تحاولُ إقناعَ نفسِها أنَّ اليوم سيمضي بلا غرائب، وفجأة تسلَّلَ إلى جسدها نسيمٌ حارٌّ خافت، سرعان ما تحوَّل إلى لهبٍ يزحفُ تحت جلدِها، يشربُ دمَها ويُشعِلُ عروقَها.

انحرفت نحو موقفِ الطَّوارئ وتوقَّفت بعنف، فتحت الباب ورمت بنفسها إلى الخارج، تنفضُ ملابسها بجنون، كأنَّ نارًا غير مرئيَّة تلتهمُها دون رحمة، وقلبها ينبضُ بالعجز والرعب.

في تلك اللحظة توقَّفت خلفَها سيَّارة سوداء، ونزلَت منها امرأةٌ أربعينيَّة، تقدَّمت نحوها بخطواتٍ هادئة. كانت ترتدي عباءةً سوداء تلامسُ الأرض، وغطاءُ رأسها فضفاض، يخفي نصفَ وجهها الذي بدا شاحبًا كقمرٍ منزوع الضوء، وعيناها نافذتان حادَّتان بطريقةٍ غير مألوفة، كأنَّهما تخترقان أعماق روح من يقفُ أمامهما.

اقتربت من مجدولين ببطء، ونطقت بنبرةٍ مُتَّزنة خالية من أيِّ انفعال:

- «ما بكِ يا عزيزتي؟

لم تتصرفين وكأنَّك تحترقين؟»

مدَّت يديها تتحسَّسُ كتفي مجدولين وعنقها ثم تابعت:

- «لا حروق ولا أثر، جسدُكِ سليمٌ تمامًا».

عادت إلى سيَّارتِها وأحضرت زجاجة ماءٍ بارد، وسكبتها على عنُقِها وكتفيها وهي تهمسُ بكلماتٍ لم تلتقطها أذنُ مجدولين، لكنَّ وقعها على الهواء كان غريبًا كأنَّها ليست كلمات بل أوامرُ تُلقى على الفراغ. تجمَّدت مجدولين للحظة، ثم انهارت على الرصيف بينما جلست المرأة على بُعدِ خطواتٍ منها، تحدِّقُ فيها بعينين لا تطرفان، وكأنَّها تقرأُ ما وراء الجلدِ والعظم.

مدَّت يدها لتساعدها على النُّهوض، وعرضت عليها أن توصلها بسيارتها، لكن مجدولين رفضت بهدوءٍ متصنِّع، وادَّعت أنَّها بخير، فأعانتها على الوصول إلى السيَّارة وضغطت على كتفِها براحةٍ باردة قبل أن تميلَ نحو أذُنِها وتهمسَ بكلمةٍ واحدة:

«سيعود».

رفعت مجدولين رأسَها لتسأل، لكنَّ المرأة كانت قد أدارت ظهرها ومشت نحو سيَّارتها بخطًا ثابتة حتَّى ابتلعتها السيَّارة السوداء.

جلست مجدولين خلفَ المقود، تتنفَّسُ بعمق، وتحاولُ إقناعَ نفسِها أنَّ ما حدث ليس سوى وهم، لكنَّها كانت تعرف أنَّ عالمها القديم قد انتهى، وبدأ زمنٌ آخر، عالمٌ كرزيٌّ اللون، حارقُ الأثر، ملعونُ الوجود، تملؤُه رائحة رماد شرهوت، وذلك الحريق لم يكن جسديًّا، وتلك السيِّدة لم تكن من هذا العالم.

كانت هذه بداية النهاية لعالمها القديم الهادئ، وبداية رحلةٍ نحو عالمٍ تحكمُهُ ثلاثة قوانين:

ملكٌ مهووسٌ بجنونٍ لا يرحم، وقلادةٌ ملعونة، وتسبيحةٌ لا تفارقُ القلب:

- «بسم الله على قلبي، حتى يسكن ويطمئن»

وما زال ظلُّ شرهوت يلاحقها.

تصدُّع الروتين وتسرُّب الظلال إلى العيادة ..

عادت الدكتورة مجدولين إلى استقبال مرضاها في «عيادة الياسمين النفسيَّة» لكن بعد لقائها المشؤوم مع «زينة/ كرزة»، خادمة شرهوت، بدا أنَّ شيئًا ما في أعماقها قد انكسر، كمرآةٍ ثمينة صمدت لسنوات قبل أن تتحطَّم فجأة إلى آلاف الشظايا الحادة التي لم يعد بالإمكان جمعُها أو إعادة بريقها.

جلست أمامها السيِّدة «أميرة»، وهي مريضةٌ قديمة تعاني من نوبات هلعٍ متكرِّرة وقلقٍ اجتماعيٍّ مُتأصِّل، ويدُها النَّحيلة تتشابكُ على حجرها، كأنَّ أصابعها أغصانٌ يابسة تبحثُ عن قطرة حياة، بينما ينسابُ صوتُها كجدولِ ماءٍ ضعيف يكافحُ للوصول إلى مصبِّه في بحرٍ من الصَّمتِ الثقيل، قالت بصوتٍ يكادُ لا يُسمع:

- «أشعرُ يا دكتورة أنَّ كلماتي نفسها تخشى الخروج إلى النُّور كأنَّ جدران العالم تطبقُ على صدري، فأتنفَّسُ غبارًا خانقًا بدلًا من الهواء النقي».

توقَّفت للحظة ثم تمتمت:

- «الأصواتُ يا دكتورة، كلُّ الأصواتِ تضخَّمت، حتَّى نبضات قلبي التي لم أكن أشعرُ بها من قبل، أصبحت كقرعِ طبولِ حربٍ لا تهدأ، تُعلنُ عن معركةٍ خاسرة في أعماقي».

أومأت مجدولين برأسِها بصمت، تحاولُ لبسَ قناع التفهُّم المهني، لكنَّ ذلك الوجه الذي كان مرادفًا للسكينة بات اليوم يحملُ خطوطَ قلقٍ دقيقة، كشروخٍ في جدارِ صرحٍ كان يومًا ما عظيمًا.

بدت يدُها التي كانت في ما مضى تخطُّ بثقةٍ على دفتر الملاحظات، مثقلةً ومتردِّدة، كأنَّ القلم نفسَهُ صار عبئًا لا يُحتمل. أعراضُ أميرة التي كانت في نظرها حالةً واضحة قابلة للعلاج بأساليبَ علميَّة راسخة، باتت اليوم تعكسُ

صدى رعبها وقلقها الشخصي، رعبٍ بدأ يتسلّلُ إلى كلِّ خليَّةٍ في جسدِها. تساءلت في صمت:

«هل تتنفَّسُ أميرة الغبارَ ذاتَه القادمَ من عالمٍ آخر؟

عالمٍ تفوحُ منه رائحةُ الكرز والدم؟

هل بدأت جدرانُ واقعِها هي الأخرى تتصدَّعُ تحت وطأة قوَّةٍ مظلمة لا تُرى؟»

ثم جمعت نفسها، وقالت بصوتٍ هادئ ومتزن، رغم الارتجاف الداخلي:

- «هذه الأفكار الاقتحاميَّة يا أميرة جزءٌ من دوَّامة القلق التي تحاصرُك، كأمواجٍ متلاطمة،

تضربُ شاطئَ عقلكِ بلا هوَّادة. سنبني معًا سدًّا يمنعُها، ونُرمِّمَ جسورَ الثِّقة بينكِ وبين الواقعِ الذي يبدو مشوَّهًا الآن».

لكن ما قالته بلسانها قبل لحظات لا يطابقُ ما يختلجُ في صدرها المرتجف ورأسها المتصدِّع.

رفعت مجدولين بصرها نحو انعكاسها على شاشة الحاسوب المطفأ، فرأت وجهًا شاحبًا، وعينين تغشاهما سحابةٌ كثيفة من الخوف، لمحةٌ خاطفة مثل برقٍ في ليلةٍ حالكة. لمحت في عينيها بريقًا أحمر خافتًا، كصدًى بعيد للون الكرز الملعون الذي صار يطاردها. فركتهما بعنف، كأنَّها تحاولُ طرد شبحٍ مستوطنٍ فيها، وعاد انعكاسُها ليبدو طبيعيًّا، أو هكذا أرادت أن تصدِّق.

- «دكتورة، هل أنتِ بخير؟ تبدين شاردة».

سألت أميرة بصوتٍ متردِّد، فابتسمت مجدولين ابتسامة شاحبة، كقمرٍ غاب نصفُه خلف الغيوم القاتمة:

- «نعم يا عزيزتي، كنتُ أستجمع أفكاري لأساعدَكِ بأفضل ما أستطيع، مشكلتُكِ تستحقُّ كلَّ التركيز».

ثم تابعت بصوتٍ واثقٍ مصطنع:

- «سنتدرَّبُ اليوم على تقنيَّاتٍ للاسترخاء الذهني العميق ومواجهة تلك الأفكار التي تقتحمُ عقلكِ كسربِ نسورٍ سوداء جائعة، لنحوِّلَها إلى أفكارٍ إيجابيَّة».

أنهت مجدولين الجلسة بصعوبة، كأنَّها تؤدِّي دورًا في مسرحيَّة عبثيَّة، بينما كان عالمُها الداخلي يتداعى شيئًا فشيئًا. وعندما خرجت أميرة استدعت مجدولين سكرتيرتها «وعد»، بنبرةٍ يائسة:

- «وعد، أرجوكِ تحققي للمرَّة الأخيرة من ملف المريضة التي كانت آخر موعدٍ لي قبل يومين، الفتاة التي اسمها زينة، أو كرزة».

نظرت وعد إليها بمزيجٍ من الحيرة والشفقة:

- «يا دكتورة، راجعتُ كلَّ السجلَّات، آخرُ مراجعةٍ في ذلك اليوم كانت للسيِّدة نادية وزوجها، لا أثرَ لاسم زينة أو كرزة، لا في الملفَّات ولا في الفواتير».

سرت برودة جليدية في جسد مجدولين، كأنَّها وُضعت في تابوتٍ من الثلج:

- «ولكن أين ذهب الملف الذي أعطيتني إياه الذي كُتب عليه:

أُدعى كرزة في كوابيسي، وزينة في الواقع»؟!

خفضت وعد رأسها:

- «لم أعطكِ أيَّ ملفٍّ بهذا الوصف يا دكتورة، لا في ذلك اليوم ولا في أيِّ يومٍ آخر، ربَّما اختلط الأمرُ عليكِ، أو أنَّ الإرهاقَ سبَّبَ لكِ بعض الالتباس».

رفض عقل مجدولين التصديق والتسليم بأنَّها تهذي مثل مرضاها، لكنَّها قالت بصوت متكسِّر:

- «يبدو أنَّني كنتُ مخطئة، شكرًا لكِ يا وعد».

عادت وعد إلى مكتبها، أمَّا مجدولين فجلست على كرسيها، تشعرُ أنَّها تغرقُ في بحرٍ من الشَّكِّ، تتخبَّطُ فيه كفراشةٍ علقت في شِبَاك عنكبوتٍ خفي، قالت لنفسها:

- «هل زينة مجرَّد وهم؟

أم أنَّ هناك قوَّةً تمحو وجودَها من الواقع وتتركني وحدي في هذا الجنون؟»

للكوابيس عيونٌ وألسن ..

كانت أنفاس نايف، المغموسة برائحة مسكٍ طفوليٍّ نقي، تتسلَّلُ إليها، تراقبُه وهو غارقٌ في نومٍ ملائكيٍّ هادئ. تلك الرائحة وحدها كانت تكفي -في ما مضى- لتمسحَ عن روحها أيَّ سحابةٍ من القلق، وتعيدَ لعالمها المترنِّح شيئًا من اتزانه، كأنَّها البوصلة الخفيَّة التي تهديها إلى برِّ الأمان.

لكن هذه الليلة، بدا وكأنَّ تلك الرائحة الملائكيَّة قد فقدت سحرها، فلم تستطع أن تقتلع الوحشة التي تجذَّرت في قلبها، ولا أن تهدِّئ الارتجاف الخفيَّ في نبضها. كان قلبُها يخفقُ بإيقاعٍ غامض، أشبه بإنذارٍ مبكِّر، خوفٌ بلا ملامح، يزحفُ في عروقِها كأنَّ شيئًا خفيًّا يتهيَّأ للانقضاض عليها من حيث لا تدري.

بعد أن أنهت قراءة قصَّة ما قبل النوم وطبعت قبلة دافئة على جبين ابنتها ياسمين التي غاصت في أحلامها الملوَّنة بأميراتٍ وقلاعٍ من سكاكر ورديَّة، وأنهارٍ تجري بالعسل، نهضت مجدولين بخطواتٍ هادئة، وسارت نحو سرير نايف، ذلك الطفل الذي طال انتظارُه، وجاء أخيرًا كمنحة سماويَّة تكسو حياتهم بمعنًى جديد، هديَّة من الله لفؤادٍ أضناهُ الشوق لسنواتٍ طويلة.

كانت ليلةً مقمرةً على غير العادة، يسكبُ قمرُها ضوءًا فضيًّا باهتًا يتسلَّلُ من بين شقوق السَّتائر، كأصابعِ شبحٍ فضوليٍّ يمدُّ يدَهُ ليمسحَ جبينَ نايف الغارق في سباته.

في ظاهر الأمر كان كلُّ شيءٍ ساكنًا، مطمئنًّا، وهادئًا على نحوٍ مخادع، لكنَّ الأم، تلك البوصلة الخفيَّة التي لا تخطِئُ في استشعار الخطر، كان قلبُها يقرعُ أجراسَ الإنذارِ في صدرها.

شيءٌ ما في الغرفة لم يكن على ما يرام، هناك حضورٌ غريبٌ وبارد، يزحفُ في الهواء كضبابٍ ثقيل.

تقدمت نحو نايف، وعيناها تتشبَّثان بالظِّلال التي راحت تتموَّجُ على الحائط المقابلِ للنَّافذة بحركةٍ لا يبرِّرُها ضوءُ القمر.

تسلَّلَ تيارُ هواءٍ مباغت، فاندفعت السَّتائرُ إلى الأعلى كأنَّها تدخلُ في رقصةٍ شيطانيَّة متقنة الإيقاع، خالية من الألحان، لكنَّها مشبعة برعبٍ صامت. هناك، عند قدمي السرير، كان الدبُّ المحشو الملقى منذ لحظات، يتحوَّلُ ظلُّهُ على الجدار إلى ذراعٍ نحيلة مشوَّهة، سوداء كالفحم، تمتدُّ ببطءٍ مقيت نحو جسد نايف الغارق في نومٍ لا يعكِّرُه ما يحيطُ به.

تجمَّدت أنفاسُ مجدولين في صدرها، وانتصب شعرُ رأسِها كالإبر، بينما انكمش قلبُها في لحظةٍ بدا فيها كأنَّهُ توقَّف عن الخفقان.

- «لا، هذا ليس حقيقيًّا، هذه مجرَّد خدعة من عقلي المريض..».

همست وفركت عينيها بقوَّة، كأنَّها تحاولُ طردَ هذا السراب المشؤوم الذي يهدِّدُ سلامة طفلها.

وحين فتحتهما، كان كلُّ شيءٍ قد عاد إلى طبيعته، لكنْ هناك رائحةٌ غريبة ملأت الغرفة، تشبهُ رائحة الكرز المتعفِّن الممزوج بالكبريت لم تعرفها إلا في كوابيسها عن عالم شرهوت.

- «إنَّه الإرهاق، الإرهاق والتوتر يفعلان بي الأعاجيب..».

حاولت إقناع نفسها لكنَّ الكلمات بدت كتعويذة باطلة. انحنت لتقبِّلَ جبين نايف الدافئ.

وفي تلك اللحظة لفحَ وجهُها تيَّارُ هواءٍ جليدي قادمٍ من زاوية الغرفة الأكثر عتمة، حيث لا نافذة، ولا منفذ هواء. برودةٌ تحملُ إحساسًا بالموت، وانتهى إلى سمعها -أو خُيِّلَ إليها- همسٌ خافت، كحفيف أوراقِ شجرةٍ يابسة أو صوت أفعى تزحفُ على رمالِ الصَّحراء، يردِّدُ اسمًا واحدًا ببطء وتلذُّذٍ مرعب:

- «ذهبه..».

انتفضت مجدولين واستدارت بسرعة البرق نحو مصدر الصوت، وقلبُها يقرعُ ضلوعَها كأنَّهُ يريدُ الهرب. لا شيء، الغرفة فارغة إلا من أنفاس طفلِها التي بدت وكأنَّها تتسارع.

أغمضت عينيها واحتضنت نايف بقوَّة، وأخذت تردِّدُ آية الكرسي وما تيسَّر لها من آيات قرآنيَّة بصوتٍ مرتجف، كأنَّها تبني بها حصناً من نور حول الغرفة، وهذا الكيان الشرير يتغذَّى على الخوف، ويتراجعُ كلَّما اقترب منه صوت الحق، كلام الله الذي يُضعفه ويهزُّ جذوره.

ومنذُ تلك الليلة، لم تنم مجدولين بعمق.

حين تتكلّم الذَّاكرة بلِسانِ الجحيم ..

في تلك الليلة لم ترغب مجدولين في لفت انتباه زوجها الذي بدأ يلاحظُ سلوكها الغريب، فأخبرته أنَّها ستراجعُ بعض الملفَّات الخاصَّة بمرضاها ليوم الغد ثم تعود للنوم، ليطمئنَّ قلبُه ويبتعدَ عن أيِّ سؤالٍ محتمل.

وسرعان ما استسلمت لغفوةٍ متقطِّعة على أريكة الغرفة، تاركةً سريرها الذي أصبح يشعرها بالاختناق، كأنَّه تابوتٌ ضيِّقٌ ينتظرُ جثَّتها. وجدت نفسها من جديد في ذلك الوادي، وادي شرهوت الكرزي الذي صار يمثِّلُ لها الجحيمَ بعينه، لكنَّه كان مختلفًا هذه المرَّة، فقد بدا أكثر رعبًا وجمالًا بطريقةٍ عجيبة تختلطُ فيها الغرابةُ بالسِّحر.

كان الوادي يكتسي حُلَّةً كرزيَّةً قاتمة، أعمقَ من أيِّ وقتٍ مضى، كأنَّ دماءً قديمة جفَّت على أرضه وصخوره، تاركةً أثرها الموحش في كلِّ زاوية.

أشجارُه الضَّخمة ذوات الأوراق العريضة، تقطرُ سائلًا لزجًا بلونِ الدَّم الجاف، يتجمَّعُ في بركٍ صغيرة على الأرض الرمادية. وفي وسط الوادي، كان شرهوت ينتظرها، لم يكن جالسًا على عرشه العظمي المعتاد الذي كانت نقوشُه الحيَّة تتلوَّى على جدرانِ عيادتِها في ذلك الصباح المرعب، بل كان واقفًا أمام مائدةٍ طويلةٍ وفاخرة تتوهَّجُ أطباقُها الذهبيَّة بفواكه سوداء غريبة الشكل، وكؤوسٍ من كريستال أسود يلمعُ فيها شرابٌ أحمر قانٍ كالياقوت المذاب.

حتى شرهوت نفسه بدا مختلفًا هذه الليلة، تجسيدًا للحزن واليأس والجنون الأبدي.

لم يرتدِ عباءته السوداء كما هي العادة، بل ارتدى حُلَّةً مخمليَّةً بلونِ الليل المُدلَهِم، مطرَّزة بخيوطٍ فضيَّة دقيقة تشبهُ مسارات النُّجوم الضائعة، ووجهُه الذي طالما لبس قناع القسوة، كان هذه المرَّة يحملُ ظلالًا من حزنٍ قديم وعميق، كحزن أعماق المحيطات المنسيَّة التي لا تلمسُها أشعَّةُ الشَّمس.

أمَّا عيناه اللّتان تتقدان لهيبًا في العادة، فقد تحوَّلتا إلى جمرتين توشكان على الانطفاء. قال بصوتٍ يهزُّ أركان روحها، ولكن بنبرةٍ تحملُ أسًى خفيًّا:

- «أهلاً بكِ في حقيقتي يا مجدولين، هل ظننتِ حقًّا أنَّ أسوارَ عقلكِ المنيعة وعلمَكِ الزَّائف، ستحميكِ مني، هيهات».

تجمَّعت الكلمات في حلقِها قبل أن تسأله بصوتٍ مضطرب:

- «أين زينة، وماذا فعلت بها؟ هل هي بخير؟»

ابتسم شرهوت ابتسامةً باهتة خالية من سخريته المعتادة:

- «زينة؟ أي زينة تقصدين، يا صغيرتي؟ تلك الدمية الصغيرة الهشَّة التي أرسلتُها إليكِ كطعمٍ في مصيدةٍ أكبر، أم التي يحاولُ عقلُكِ اليائس أن يتشبَّثَ بها كغريقٍ يتعلَّقُ بقشَّة؟»

ثم لوَّح بيدهِ، فظهرَ أمامَها سرابٌ لعيادتها وملفٌّ فارغٌ يحملُ اسم زينة، يلتهمُه غبارُ النسيان الأسود كما تلتهمُ النَّارُ صفحات الذكرى.

- «أنا من يقرِّرُ ما ترين، وما تتذكرين، وما هو حقيقي في عالمكِ الهش».

ثم أشار إلى كرسيٍّ فارغٍ مزخرفٍ بنقوشٍ معقَّدة، وكأنَّه مصنوعٌ من كوابيسَ متجسِّدة.

- «لقد هيَّأتُ لكِ مكانَكِ الذي اعتدتِ الجلوسَ فيه يا ذهبه».

فصرخت وهي ترتجفُ من الخوف:

- «أنا لستُ ذهبه، أنا مجدولين!»

تنهَّدَ بعمق، وقال بصوتٍ ثقيل:

- «الأسماءُ مجرَّدُ أصداف، أمَّا الرُّوح فهي الجوهر، وروحُكِ هي الصدى لتلك الرُّوح التي عشقتُها حتَّى الجنون».

اقترب منها، وفي عينيه شوقٌ جارحٌ وبحرٌ من الحزن لا شاطئ له:

- «فقدتُ ذهبه».

كلمتان غاصتا في قلبها، قبل أن يشتعلَ وجهُه من جديد بالقسوة:

- «لكنَّكِ هنا الآن، وستكونين ذهبه، شئتِ أم أبيتِ!»

اختفى الوادي الكرزي فجأة، ووجدت مجدولين نفسها أمام مرآةٍ سوداء، تعكسُ ظلامًا مخيفًا لا نهاية له، ثم بدأ انعكاسُها يذوبُ ويتشكَّلُ من جديد، كاشفًا عن وجه خادمته «كرزة» بعينيها الحمراوين كالياقوت الملعون، وعلى شفتيها ابتسامةُ نصرٍ شيطاني.

لكن خلفَ قناع كرزة المرعب، لمحت مجدولين للحظة خاطفة كبرقٍ في ليلةٍ عاصفة، وجه زينة الحقيقي، وقد بدت خائفة ويائسة تصيحُ بلا صوت، وعيناها تستنجدان بها من وراء حجاب من الرُّعب واليأس لا يمكن وصفه.

ثم ابتلع الظَّلام كلَّ شيء وسقطت مجدولين في بئر العدم وهي تسمعُ ضحكةَ شرهوت المجنونة التي تحملُ كلَّ ألم العالم وجنونِه، معلنةً عن بداية فصلٍ جديدٍ من العذاب.

استيقظت مجدولين وقلبُها ينبضُ بعنف، كطائرٍ سجين يحاولُ اقتلاع قضبان قفصِه الذَّهبي الذي تحوَّل فجأة إلى جحيم، بينما كان صوت شرهوت وهو يهمسُ بحزنٍ وغضب:

«فقدتُ كرزة..».

يتردَّدُ في أذنها كصدى ريحٍ شتويَّة قادمة من عالم النسيان. لم يعد شرهوت مجرَّد وحشٍ يطاردُها في كوابيسها، بل أصبح لغزًا مؤلمًا، وجرحًا مفتوحًا ينزفُ لعنةً في الظلام، وجزءًا من قدرها الذي لم تعد قادرةً على الهرب منه. كلُّ ما تبقَّى لها هو الانتظار...

انتظارُ النهاية المأسويَّة.

عندما أغمضتُ عيني، أدركتُ أنّ الهروب لم يعد ممكنًا،

فاللَّعنة اختارتني، والظِّلالُ باتت تعرفُ اسمي...

الختم الكرزي

الفصل الثالث:
جذور لعنة الظلام ..

شاهدٌ على الظِّل ..

في صباحِ اليوم التالي لذلك الكابوس المرعب، دخلت مجدولين العيادةَ وهي تشعرُ كأنَّها لم تنم ليلةً واحدة فقط، بل عبرت دهورًا من العذاب في عالم شرهوت المظلم.

شعرت أنَّ روحها قد تمزَّقت إلى أشلاءٍ مُتَناثِرة في أرجاء الكون، وكلُّ جزءٍ منها صار يتنفَّسُ الألم وحده. كان الإرهاقُ النفسي والجسدي قد بلغ ذروته وبدأ الشَّكُّ يتسلَّلُ إليها، في قدرتها على الاستمرار في عملها، وعلى الصمود في حياتها كلِّها.

طلبت مجدولين من وعد، بنبرةٍ حاسمة لا تقبلُ النقاش، تحملُ مزيجًا غريبًا من اليأسِ والقوَّة، أن تعرِضَ لها تسجيلات كاميرات المراقبة لذلك اليوم، بعد مغادرة السيِّدة نادية وزوجها تحديدًا، تلك الفترة التي يُفترضُ أنَّ «زينة» قد زارتها فيها.

كانت تلك الزيارة قد تركت في ذاكرةِ مجدولين أثرًا ضبابيًّا مشوَّهًا، مثلَ حلمٍ بعيدٍ كادَ أن يُمحى، يلوحُ بين الحقيقة والوهم.

جلست أمامَ شاشةِ العرض، ووعد بجانبها تبدو أكثر توتُّرًا من أيِّ وقتٍ مضى.

كانت عيناها تتنقَّلان بين الشاشة وملامح مجدولين الشَّاحبة المُتَجهِّمة التي بدا كأنَّها كَبِرَت عشرَ سنواتٍ في ليلةٍ وضحاها، وكأنَّ آلامَ العالمِ كلَّها قد حَفرَت أخاديدها على وجهها.

ظهرت مجدولين في التسجيل وهي تُنهي جلستها مع السيِّدة نادية وزوجها بابتسامتِها المهنيَّة المعتادة، ثم بقيت في مكتبها وحيدةً قرابة السَّاعة، ترتِّبُ أوراقَها وتستعدُّ للمغادرة.

بدا كلُّ شيءٍ طبيعيًّا إلى حدِّ الرُّعب، كأنَّ عقلَ مجدولين هو الذي يعبث بها، وأنَّها بدأت تنسجُ أوهامًا من خيوط الجنون، وأنَّها هي من تحتاج إلى علاج

نفسي عاجل.

- «لا أرى أيَّ شيءٍ غريبٍ يا دكتورة».

قالتها وعد بصوتٍ خافت، كأنَّها تخشى أن تزيدَ من معاناة رئيستها التي تحترمُها وتخافُ عليها في الوقت نفسه.

- «انتظري».

قالت مجدولين بحدَّة، مشيرةً بإصبعٍ مرتجفٍ نحو لحظةٍ معيَّنة في التسجيل، وكأنَّها تشيرُ إلى منعطفٍ في حياتها، أو ربَّما إلى لحظةٍ لا عودةَ بعدها.

- «هنا... أترين هذا التشويش؟ كأنَّ هناك تداخلًا كهربائيًّا، أو مسحًا متعمَّدًا من قبَلِ قوَّةٍ خفيَّة».

أعادت وعد المشهد مرارًا. بالفعل، هناك تموُّجٌ طفيف يلاحظُ بصعوبة، استمرَّ لثوانٍ معدودة ثم اختفى، لكنَّه تركَ إحساسًا غريبًا بأنَّ شيئًا ما قد حُذف، وأنَّ هناك فجوة في الزَّمن نفسه.

- «ربَّما مجرَّد خلل بسيط في نظام الكاميرات»،

قالت وعد بتردُّد، تحاولُ إيجادَ تفسيرٍ منطقي لما تراه، وطرد الأفكار المظلمة من رأسها، لكنَّ مجدولين ردَّت بنبرةٍ قاطعة:

- «لا... هذا ليس خللًا، أكملي التسجيل».

وفي اللحظة التي خرجت فيها مجدولين من مكتبها في التسجيل، واتَّجهت إلى كراجِ السيَّارات، شهقت وعد بصوتٍ مكتوم، وقفَ معه شعرُ رأسِها من فرط الرعب.

لم يكن مجرَّد ظلِّ إضاءة كما ظنَّت في المرَّةِ الأولى، بل كان شكلًا أثيريًّا، أطول وأنحف قليلًا من مجدولين، يمشي خلفَها بخطواتٍ غير بشريَّة، كطيفٍ يبحثُ عن جسدٍ ليسكنَه.

وعند زاوية الممر المظلمة، التفت ذلك الشكل للحظة قصيرة، ونظرَ إلى عدسة الكاميرا، ولوَّح بيدٍ شفَّافة كأنَّها مخلوقة من دخان، قبل أن يتلاشى عائدًا إلى البُعد الذي جاء منه، تاركًا وراءَه بصمةً مشؤومةً في عالم البشر.

لم تكن ملامحُه واضحة، لكنَّ حضورَهُ كان أنثويًّا غامضًا، ومقلقًا إلى حدٍّ يثيرُ الفزع، كأنَّهُ يحملُ سرًّا قديمًا أو لعنة أبديَّة.

- «يا إلهي!..».

همست وعد، واضعةً يدها على فمها، وعيناها متَّسعتان من شدَّة الهلع.

- «ما هذا؟ هل هو حقيقي؟ أم أنَّني بدأتُ أرى أشباحًا أنا الأخرى؟»

نظرت مجدولين إليها، ورأت لأوَّل مرَّة الرُّعب الحقيقي في عينيها. لم تعد وحدها من يرى الغرابة، فقد أصبح لديها شاهدٌ على الجنون، وعلى الحقيقة المُرَّة التي تحاولُ الفرار منها.

- «وهل لاحظتِ شيئًا غريبًا في سلوكي حينها يا وعد؟»

سألتها بهدوءٍ قاتل، كمن تيقَّن أنَّ أسوأ كوابيسه قد بدأ، وأنَّ المعركة ليست ضد أوهام، بل ضد قوَى حقيقيَّة، مظلمة وشريرة.

تردَّدت وعد، ثم قالت بصوتٍ مرتجف:

- «بصراحة، عندما تحدثتِ إليَّ عند خروجكِ في ذلك المساء، لم تكوني أنتِ؛ كان صوتُكِ أعمقَ قليلًا، بنبرةٍ ساخرة لم أسمعها منك من قبل، وكانت نظرتُكِ باردة وغريبة، كأنَّ شخصًا آخرَ ينظرُ من خلالكِ. حتى أنَّكِ لم تودعيني باسمي، بل قلتِ شيئًا مثل:

الليلُ ينادي أحبابه الحقيقيين».

أغمضت مجدولين عينيها، وقد شعرت أنَّ قطعةً أخرى من أحجية الرُّعب استقرَّت في مكانها.

قطعةً تفتحُ البابَ على احتمالاتٍ أشدَّ رعبًا. لم تكن زينة وحدها أسيرة شرهوت، ربما هو، أو كيان آخر تسلَّل إليها للحظة، فاختطف كلماتها ونظراتها، وجعلها تبدو شخصًا آخر تمامًا.

كلمات زينة في الحلم الأخير عن «شجرة الحماط» و«جدها» و«الختم» و«المفتاح»، أصبحت أكثر إلحاحًا من أيِّ وقتٍ مضى.

لم تعد الكوابيسُ مجرَّد مشاهد مخيفة تنتهي عند الاستيقاظ، بل تحوَّلت إلى حربٍ حقيقيَّة على عقلِها وروحِها وجسدِها. حربٍ يجبُ أن تخوضَها، حتَّى لو كان الثَّمنُ كلَّ شيء... حتَّى لو اضطرَّت للنزول إلى جحيم شرهوت بنفسها، لتواجه الحقيقة أو الموت.

جاء صوت وعد، ناعمًا كنسمةٍ تطفئُ لهبًا:

- «دكتورة، يجب أن تخبري أنين، صديقتَكِ التي كانت معكِ في كلِّ لحظة ألم، رغم أنَّ معرفتكما لم تتجاوز عامين، أثبتت لكِ أنَّها امرأةٌ من نور، ووليدةُ قوَّةٍ نادرة، وجودُها قد يعيدُ إليكِ شيئًا من ذاتكِ، ومن قوَّتكِ التي عهدناها فيكِ».

أنين الورد ..
من هي أنين الورد؟

إنَّنا امرأتان لم تكسِرهُما الحياة، بل صقلتهُما النَّار حتَّى اتَّخذَت ملامحُنا صلابةً لا تلين.

هكذا انطلقت رحلتي في مواجهة لعنة شرهوت، مدفوعةً بإيمانٍ راسخٍ بقدرةِ اللَّه المطلقة على كلِّ ما تحملُه الأرض، وبقوَّة صداقةٍ لا تهتز، وباعتقادٍ عميق أنَّ الضوء مهما كان خافتًا، يكفي لاختراق الظلام.

صديقتي أنين، تلك التي تمشي على الأرض ووروُدُ قلبِها تئنُّ، فهل للوردِ أنين؟

نعم، وأنينُه هو ينبوعُ جماله.

تعرَّفتُ عليها بمحض المصادفة، فوق السَّحاب وبين الغيوم، حين جلسَت بجانبي في مقعدِ الطَّائرةِ المُتَّجِهَة إلى دبي.

تبادَلنَا بعض الأحاديث للتعارف، لكنَّ بعض الأرواح عندما تلتقي بها تشعرُ أنَّك تريدُ الاقترابَ منها بلا سبب، لأنَّ لغة الأرواح لا تخطئ.

تلاقت أعيننا، وارتسمت على وجوهِنا ابتساماتٌ دافئة، ثم انسكَبَت الكلماتُ بيننا كأنهارٍ صغيرة، تكشفُ لي عن روحٍ ساحرة، تنبضُ بالتحديات والأسئلة التي لا تهدأ. سألتني عن سببِ زيارتي لدبي، فأخبرتُها أنَّني ذاهبة في مهمَّة عمل لحضور دورةٍ تدريبيَّة في بعض أساليب المعالجة الحديثة في الطِّبِّ النَّفسي، بحكمِ عملي كطبيبةٍ نفسيَّة، فابتسمت بثقةٍ هادئة،

وقالت:

- «لطالما كنتُ طبيبةَ نفسي، بقوَّةٍ زرعَها اللَّهُ داخلي، لأواجه حياةً على هيئة غابة، القويُّ يأكلُ الضعيف دائمًا، والغنيُّ يقهرُ الفقير، والزَّوج يستعبدُ زوجته

ويكسرُ عزيمةَ أولاده، لكنَّني انتصرتُ على تلك الغابة، وتعلّمتُ المشي على دروبٍ وعرة، لأُمهِّدَ الطريق لي ولأطفالي.

أصبحتُ أنثى تساوي ألفَ رجلٍ، ولم تزدني صفعاتُ الحياة إلا بصيرةً».

رأت النور في قلب العتمة، كما ترى الشمس وهي تتسلَّلُ بخجل من نافذة الطائرة.

صاغت أحلامها من غبار المستحيل، وحوَّلتها إلى غيومٍ تمطرُ على القلوب التي أنهكها الجفاف، وعرفت أنَّ الخوفَ واليأسَ هما مفتاحُ الخرابِ لكلِّ امرأة، وأنَّ القسوة قد تكونُ أوَّلَ ملامحِ النضج، لكنَّها آمنت أنَّ رفضَ الاستسلام لتلك القسوة هو الخطوةُ الأولى نحو الحريَّة.

وحين باحت لي بأسرارِ حياتِها، شعرتُ أنَّني في كلِّ مرةٍ أستمعُ إليها، أريدُ أن أنهضَ وأقفَ إجلالًا لها وللحياةِ التي ما زالت تنبضُ بقوَّة في قلبها.

بدأت من العدم، وصنعت من لا شيء عالمًا يليقُ بها وبأطفالها. أمَّا والدها فقد بقي له النَّصيبُ الأكبر من قلبها، رغم ما أورثها من قسوةٍ وجراح. رأت في أعماقه حبًّا لم يستطع هو نفسه أن يدركَه، وحين تسلَّلَ العجزُ إلى جسده في أيَّامه الأخيرة، أخذَ يبحثُ عنها بين ركامِ الأشواك التي أحاطَت بروحِه حتَّى وجدها البلسمَ الوحيدَ لأوجاعِه المُتَناثِرة، وفي لحظة الرحيل، سلَّمها ما تبقَّى منه ،آخرَ نبضةٍ من قلبه، ووضعَ في كفِّها آخرَ ذرَّةِ دفءٍ كان يخبِّئها لها منذ زمن.

غادر الحياة وهو يودِّعها.

هي صديقتي، ومصدرُ قوَّتي وملاذُ أماني، امرأةٌ شقَّت دربها في الحياة بهدوء، تحملُ في ابتسامتِها الدَّافئة حضنًا خفيًّا لا تراهُ العيون ولكن تشعرُه الأرواح. منذ ولادتها كان الألمُ لصيقها، اختطفَ طفولتَها قبلَ أن تتذوَّقها. كَبِرَت قبل أن يحنَّ عليها العمر، وربَّت غيرها قبل أن تُربَّى هي، وأعطت

بكرمٍ لا ينضب قبل أن تنالَ شيئًا يُعطى لها، وحُمّلت بالمسؤوليَّة قبل أن تحظى بأبسط حقٍّ كطفلة، أن تُمسِكَ لعبتها الأولى.

ظنَّت أنَّ القسوة هي لغة العالم، والسِّياط هي ثوبُ الحياة الذي لا فكاك منه. سألتها ذات يوم:

- «كيف تعلَّمتِ أن تُعطي حبًّا لم تتذوَّقي رحيقَهُ من منبعه الأصلي، الأم؟»

أجابت وهي تحكي عن طفولتها، وصوتُها يئنُّ بالعبرات:

- «ما ذنبي أنا يا أمي؟ ما ذنبي لأنَّك حكمتِ عليَّ بكُرهٍ فُرِضَ عليكِ؟

هل ذنبي أنَّني أشبهُ دنيا ليست دنياكِ؟

كنتُ أبحثُ عن عطرِك في سريرك، كي يطمئنَّ قلبي من وجع أهلٍ قيل لي إنَّهم عائلتي، فصنعوا من حياتي منهجًا للحسدِ والغيرة، ألسنةٌ سليطة تنهشُ روحي البريئة وتُعلِّمُها كيف تُدفنُ الضِّحكات قبل أن تُولد».

أضافت كأنَّها ترفعُ راية النصر:

- «رغم قسوتكِ، تعلَّمتُ أن أزرعَ في قلبي حبًّا بلا شروط، وعطاءً بلا حدود. لن أتركَ لأطفالي ميراث المرارة الذي سقَيتِني إيَّاه، ولن أسمحَ أن يتذوَّقوا وجعَ الأمومة النَّاقصة التي عشتُها في حضنكِ الجاف. سأكونُ لهم حضنًا لا يشيخ، وأمًّا لا تُشبهكِ في شيء سوى الاسم».

ثم قالت وهي ترفعُ رأسها بفخر:

- «اختُطفتُ إلى عالمٍ أشدَّ قسوة، لكنَّني ولجتُهُ حاملةً في قلبي بذورَ حبٍّ وعطاءٍ أودعها اللَّه في قلبي بكرمٍ لا ينضب. ثم رزقني سبحانه أربعةَ أطفال، فكانوا أخصبَ تُربةٍ لتلك البذور، نبتوا في روحي كما تنبتُ الورودُ في صحراءَ عطشى. تعلَّمت أن أستمدَّ قوَّتي من رهافة براءَتهم وملامحِ وجوهِهم التي كانت مرايا أرى نفسي الحقيقيَّة فيها. هم دليلي على أنَّ القوَّة التي أبنيها ليست من الخارج، بل من صميمي وأعماقي، من عيون أطفالي».

ومنذ ذلك اللقاء، وبعد عشرةٍ صادقة أثبتتها الأيَّام، لم تعد أنين مجرَّد صديقة، بل صارت ملاذي وسندي وبوصلتي حين ضاعت الاتجاهات.

رويت لها وحدها كلَّ شيء، منذ تلك اللَّحظة الملعونة التي التقيتُ فيها زينة خادمةَ شرهوت في العيادة، إلى أوَّل كابوسٍ طرقَ جفوني، ومن الوادي الكرزي الذي صار ساحةً لنزيف روحي،

إلى كلِّ همسةٍ سمعتُها، وكلِّ علامةٍ نقشَها الخوفُ على جلدي، وحتَّى لحظات الشَّك في جسدي وعقلي ووجودي، أخبرتُها بكلِّ ما خفتُ أن أنطقَهُ لنفسي.

كانت تنصت بكلِّ حواسِّها، وتُرمِّمُ صمتي بكلماتها، وتُطفئ احتراقي بحضورها. صديقتي أنين، هي جمالٌ وحياة.

سألتني يومًا بصوتٍ ينسلُّ من دفء الحلم:

- «مجدولين... لماذا تناديننني بأنين الورد، وهل للورد أنين؟»

ابتسمتُ، وقلتُ لها كأنَّني أُهديها سرًّا:

- «نعم، أنين الورد يكمنُ في عطِره، ذلك العطر الذي يمنحنا السكينة وسط ضجيجِ الحياة.

الوردُ لا يصرُخ، لكنَّه يُبكينا بلُطف رائحته، وأنينُه موسيقى من صنع الرحمن، تأخذُنا إلى عوالمَ لا تزورُها إلا الملائكة. وأنتِ من تلك العوالم، إكسيرُ الأملِ والحبِّ لكلِّ من مرَّ بدربك الملائكي يا ملاكي الجميل».

حيث يشتدُّ الظلام، وتتداخلُ الحقائق بالأوهام، ويغدو الطريقُ مفروشًا بالألم والأشواك، سنمشي معًا نحو الحقيقة، وسنصل؛ لأنَّنا نسيرُ فيه يدًا بيد..

نذيرُ اِلبئر ولغةُ الأفاعي ..

كانت تلك أوَّل زيارة لتلك السيِّدة الغريبة إلى العيادة، وقبلَ لحظاتٍ من دخولها، شعرت مجدولين بنسمةٍ باردة غير مبرَّرة تتسلَّلُ من تحت الباب، ترافقُها ارتعاشةٌ خفيفة في زجاج نوافذ العيادة، كأنَّ الهواء يحملُ شيئًا لا يُرى.

ثم انفتح الباب فجأة، دون أن يطرقَهُ أحد، ولولا ورقةُ الموعدِ الرسميَّة الموضوعة على المكتب، لظنَّت أنَّ الريح وحدها هي من فتحت الباب، وأنَّ المرأة التي دخلت لم تكن مخلوقًا من لحمٍ ودم، بل طيفًا داكنًا مُتقن التمويه خرج من رحم الظلام.

خطواتُها الأولى كانت كافية لقرعِ جرسِ إنذارٍ خفي في أعماق مجدولين، شيءٌ لا تراهُ العين، لكنَّ الجسدَ يلتقطُهُ كذبذبةٍ باردة تسري في العمود الفقري وتنذرُ بخطرٍ غير مرئي.

كانت ترتدي السواد الأنيق، ليس ذلك السواد المعتاد، بل الذي يمتصُّ الضَّوءَ من حوله، وابتسامتُها المبطَّنة بالخبث تشبه سكون المقبرة في ليلةٍ لا قمر فيها. استقبلتها مجدولين محاولةً أن تحصِّنَ نفسَها بقناعِ المهنيَّة الصَّارمة التي تعلَّمتها في سنوات دراستها الطويلة، رغم أنَّ كلَّ خليَّةٍ في جسدها كانت تصرخُ بالخطر، وتنذرُها بأنَّ هذه المرأة لا تبحثُ عن العلاج بل تحملُ رسالةً من عالم الظلام.

بدأت السيِّدة وشمة الحديثَ بصوتٍ هادئ يخفي وراءَهُ طبقاتٍ من الدَّهاء، كأفعى تتلوَّى تحت أوراق شجرة يابسة، تنتظرُ اللَّحظة المناسبة لتنقضَّ على فريستها.

- «الأحلام يا دكتورة... تلك التي أرى فيها أماكنَ قديمة وبيوتًا حجريَّة مهجورة، أصبحت الآن أكثر وضوحًا، كأنَّ ضبابًا كثيفًا كان يحجبُ الرؤية، ثم بدأ ينقشعُ ببطء، ليكشفَ عن معالم طريقٍ مجهول قد يقودني إلى كنوزٍ منسيَّة، أو إلى هلاكٍ محتوم، لا أدري».

- «وهل يمكنُكِ وصفُ هذه الأحلام بوضوحٍ أكبر يا سيِّدة وشمة؟»

سألت مجدولين، وهي تدوِّنُ ملاحظاتٍ شكليَّة في ملفِّها، بينما يحلِّلُ عقلُها كلَّ كلمةٍ كأنَّها تحملُ مفاتيحَ لأبواب الجحيم، أو لخلاصها.

- «أرى نفسي في بيوتٍ حجريَّة متناثرة على سفوحِ جبالٍ وعرة وشامخة كقلاعٍ مهجورة، كأنَّها عيونٌ تحدِّقُ في السَّماء منذ الأزل، وتشهدُ على أسرارٍ لم تُكشف بعد، وأحيانًا أرى بئرًا عميقة، مظلمة وجافَّة، تحيطُ بها أشجارٌ ذوات أوراقٍ عريضة وغريبةِ الشَّكل، كأذرعٍ مفتوحة تدعوني للاقتراب أكثر، وفي الوقت نفسه تحذِّرُني من الاقتراب. يلازمني شعورٌ طاغٍ بأنَّني لست وحدي، وأنَّ هناك من يراقبُني بصمت، أو ينتظرُني بفارغِ الصَّبر، كعاشقٍ مجنون أو كوحشٍ جائع».

كانت كلمات وشمة تتسلَّلُ إلى روح مجدولين كقطرات سمٍّ بطيئة تتغلغلُ في أعماقِها وتزرعُ القلق والخوف في قلبها. كلُّ كلمةٍ تنطقُها كانت مطابقةً لكوابيسها على نحوٍ مرعب:

بيت جد زينة، والبئر المشؤومة، وأشجار الحماط التي كانت تطاردها في أحلامها كأنَّ ظلالَ الماضي تتجسَّدُ أمامَها.

- «وهل تشعرين بالخوف من هذه الأحلام؟

أم أن هناك مشاعر أخرى تراودُك حولها؟»

سألت مجدولين، وهي تحاولُ أن يبقى صوتُها ثابتًا، رغم رغبتها بالهروب من هذا الموقف المرعب. ابتسمت وشمة ابتسامة جانبيَّة ماكرة، وردَّت:

- «ليس دائمًا يا دكتورة، أحيانًا أشعرُ بالفضول، فضولٍ لا يقاوم لمعرفة ما يكمنُ في نهاية ذلك الطريق المجهول، وأحيانًا أشعرُ بالقوَّة تنبعثُ من تلك الأماكن، كأنَّها تناديني، كأنَّها جزءٌ منِّي، أو أنا جزءٌ منها منذ الأزل.

هل تؤمنين بالأرواح الحارسة يا دكتورة؟

تلك التي تحمي كنوزَها وأسرارَها في طيَّات الزمان، وتنتظرُ من يجرُؤ على كشفِها؟»

- «أنا أومنُ بالعقل البشري وقدرته الهائلة على خلقِ صورٍ معقَّدة ورمزيَّة في الأحلام، تعكسُ مخاوفنا ورغباتنا».

أجابت مجدولين بحذر، وهي تتحاشى النَّظر في عين وشمة التي بدت كنافذة على عالمٍ لا يخضعُ لقوانين المنطق أو العلم.

همست وشمة بصوتٍ كفحيح الأفعى:

- «وربَّما بناءً على أقدارنا أيضًا يا دكتورة، بعضُ الأقدارِ لا يمكنُ الهروبُ منها، وبعضُ الكنوز لا بُدَّ أن تُكتَشَف، وكذلك اللعنات الأبديَّة».

نظرت مجدولين إلى ساعة مكتبها، كأنَّها تعدُّ الثواني المُتَبقِّية قبل وقوع الكارثة، أو قبل أن تفقدَ عقلها.

- «وقتُ جلستنا أوشكَ على الانتهاء، سنحاولُ في المرَّة القادمة تحليلَ هذه الرموز، والبحثَ عن جذورِها في ماضيكِ أو في تجاربكِ السَّابقة التي ربَّما تكونين قد نسيتِها».

نهضت وشمة بهدوء، كملكةٍ تغادِرُ عرشها، ثم توقَّفت عند الباب والتفتت بابتسامة غامضة:

- «ولكن لديَّ نصيحة صغيرة يا دكتورة، أحيانًا البحثُ في ماضي الآخرين، أو حتى ماضيك، قد يوقظُ أشياءَ كان من الأفضل تركُها نائمة في سباتها الأبدي، أشياء قد تكون جميلة وقويَّة، أو جائعة على نحوٍ مرعب».

خرجت وشمة، تاركةً وراءَها بردًا يخترقُ عظام مجدولين رغم حرارة الجو في الخارج. لم يعد هناك أدنى شك، هذه المرأة ليست مريضةً تبحثُ عن علاج، بل هي مبعوثةٌ من عالم الظلام،

عينٌ لشرهوت تدفعُها بخطًا محسوبة نحو بئرٍ مجهولة، وجنونٍ قد يكون خلاصها أو هلاكها الأبدي.

خيوطُ البحث وفِخاخُ الظِّلال ..

«إنَّها تعرف يا أنين، تعرفُ كلَّ شيء عن الكوابيس التي تفتك بي، وعن البيت الحجري الملعون، والبئر التي تبتلعُ روحي كلَّ ليلة. كأنَّها تتسلَّلُ إلى أفكاري كأنَّها تقرأُ صفحةً من كتاب حياتي، تجلسُ بجانبي في أحلامي، وتشاهد ما أراه».

قالت مجدولين لصديقتها في ذلك المساء، بصوتٍ متكسِّرٍ يرتجفُ تحت وطأة الغضب والرَّهبة واليأس، كأنَّها تقفُ على حافَّة هاويةٍ لا قاع لها.

كانت قد روت لصديقتها أحاديث جلستها المرعبة مع السيِّدة وشمة، تفاصيلُ تقطرُ سُمًّا في كلِّ كلمة، وتلسعُ في كل نظرة، كأنَّها خيوطٌ خفيَّة تشدُّها نحو هوَّةٍ مظلمة. صمتت أنين للحظة، تستوعبُ ما تسمع، ثم جاء صوتُها عبر الهاتف صلبًا، متماسكًا، كجدارٍ ينتصبُ في وسط العاصفة ليمنح قلب مجدولين الأمان:

- «اسمعي جيِّدًا يا مجدولين، هذا الكيان لا يملك أن يمَسَّكِ، ولا أن يؤذيكِ ما دمتِ محصَّنة بذكر اللَّه، لكنّ علينا أن نعرفَ من أين انطلق هذا الظِّل، وكيف امتدَّ وصولًا إلينا، وما هي خيوطه و حين نكتشِفُ أصلَه، نقتلعُ شجرتَه من جذورها».

تردَّدت أنفاس مجدولين، كأنَّ الهواء صار أثقلَ ممَّا تحتمل، ثم همست:

- «وماذا أفعل يا أنين؟ أشعرُ أنَّني محاصرة، أو عالقة في شبكة عنكبوت، وكلَّما حاولتُ التحرُّر ازدادت الخيوط التفافًا حولي وأصبحت أكثر إحكامًا. كلُّ خطوةٍ أمشيها يراها، وكلُّ فكرةٍ تدورُ في رأسي كأنَّها مكتوبة أمامه، كأنَّني دميةٌ يحرِّكُها بخيوطِه».

قالت أنين، ونبرتها تحملُ هذه المرة تصميمًا لا يتزحزح:

- «إذًا، يجب أن نسبقَهُ بخطوة، علينا أن نعرفَ أكثر عن زينة وجدِّها، وعن طقوسِه المشبوهة، لكنَّنا بحاجة الآن إلى شخصٍ يفكُّ رموزَ الجنِّ

وطلاسمَهُم، ويعرفُ كيف يواجِهُهم وجهًا لوجه».

- «لكن يا أنين، ماذا لو كان هذا مجرَّد فخٍّ آخر من خطط شرهوت؟

وماذا لو كانت خطواتنا في البحث ستقودنا إلى شخصٍ يخدمه أيضًا؟»

سألت مجدولين بخوفٍ لم تستطع إخفاءَه، كأنَّها ترى الفخاخ تُنصبُ حولها. فابتسمت أنين ابتسامةً انعكست في نبرتها:

- «لهذا سنبحثُ بحذرٍ شديد، ونسألُ من نثقُ بهم فقط. ابحثي بين زملائِك وأساتذتك في الجامعة، ربَّما في قسم التاريخ أو الآثار أو الشريعة، وأنا سأسألُ من جهتي بعض معارفي الذين يعرفون كيف يتعاملون مع هذا النوع من الأمور، لكن تذكَّري دائمًا، ما دمتِ تذكرين اللَّه فأنتِ خارج متناول الجن، والذِّكر سيكونُ حبلَ النَّجاة الذي نتشبَّثُ به ونحنُ نغوصُ في هذا البحر المظلم».

أغلقت مجدولين الهاتف وهي تشعرُ بثقلِ المسؤوليَّة يزدادُ على كاهلها، فهي تحملُ مصيرها ومصير من تحبُّ بين يديها المرتجفتين.

كانت تعرف أنَّ ما ينتظرُهما ليس مجرَّد رحلة بحث عاديَّة، بل سباقٌ مع كيانٍ لا يعرفُ الرَّحمة، يختبئُ في الظِّلال ويتربَّصُ بصبر، حتَّى يلتهمَ كلَّ ما يريد. لكنَّها أيضًا، ولأوَّل مرَّة منذ أيَّام، شعرت أنَّ هناك خيطًا من النُّور يمتدُّ وسط هذا الظلام يبدأ بذكر اللَّه، ويمتدُّ نحو الحقيقة، مهما كانت مرعبة.

واحةُ العقلِ في صحراءِ الجُنون الواسعة ..

في صباح اليوم التالي، ورغم الليلة المروِّعة التي قضتها محاصرة بين الكوابيس والهمسات المظلمة، ورغم الإرهاق الذي ينهشُ جسدَها وروحها كوحشٍ جائع، والأسئلةِ التي تدورُ في رأسِها بلا توقُّف، دخل شابٌّ في أوائل العشرينيات إلى عيادة مجدولين.

يدعى «نبيل»، وقد أحالته إليها طبيبةٌ من زميلاتها، مشيدةً بقدرتِها الفائقة على التعامل مع الحالات المعقَّدة والاستثنائيَّة.

كان نبيل أسير وسواسٍ قهريٍّ يسيطرُ على كلِّ زاويةٍ من حياته ويفرضُ عليه طقوسًا من النظافة والترتيب لا نهاية لها، ويرسمُ الأرقام في ذهنه كأنَّها مفتاحُ النَّجاة الوحيد في عالمٍ فوضويٍّ يهدِّدُه في كلِّ لحظة.

يغسلُ يديه عشرات المرَّات، وأحيانًا مئات، حتى تشقَّقت بشرتُه الرقيقة واصطبغت بالدم كأنَّه يحاولُ تطهيرَ نفسِه من خطيئةٍ لم يرتكبها.

كان يتجنَّب لمس أيِّ شيء مهما كان مهمًّا، كأنَّ العالم بأسرِه ملوَّثٌ بالجراثيم والأوساخ، حتَّى إنَّ أبسطَ الأشياء تحوَّلت إلى فخٍّ يعيقُه عن العمل ويبعِدُهُ عن حياته الطبيعيَّة.

جلست مجدولين صامتة، وعيونها مثبَّتة على تفاصيله، تحلِّلُ كلَّ الأعراض بدقة، وتتقصَّى تاريخ الحالة وتطوُّرها، وتفحصُ العواملَ التي ساهمت في بروز هذه الطقوس القهريَّة.

كان عقلُها يعملُ بمنهجيَّةٍ علميَّة بحتة، منسجمًا مع الواقع، وبعيدًا عن الكوابيس والظِّلال والهمسات الشيطانيَّة التي صارت جزءًا من واقعها، قالت له بنبرةٍ هادئة واثقة:

- «ما تعاني منه يا نبيل هو اضطرابٌ نفسيٌّ معروف، ويمكنُ علاجُه بفعاليَّة كبيرة، وإن كان يتطلَّبُ منك صبرًا وجهدًا والتزامًا بالعلاج».

ثم شرحت له طبيعة الوسواس القهري، وأكَّدت أنَّ الأفكار الوسواسيَّة ليست حقائق، بل أوهام يفرضُها الاضطراب على العقل، وأنَّ الطقوس القهريَّة لا تمنحُ الأمان، بل تزيدُ القلق وتعمِّقُ أثره.

أوضحت له أنَّها ستستخدمُ معه العلاج السلوكي المعرفي مع التعرُّض التدريجي للمواقف التي تثيرُ قلقه، مع مقاومة الانغماس في الطقوس القهريَّة، محذِّرةً إيَّاه من أنَّ البداية قد تكون صعبة، وأنَّ القلق سيكونُ جزءًا لا يتجزَّأ من رحلة التعافي، لكنَّها أكَّدت له بثقة أنَّ الالتزام والعمل المنتظم سيقودانه إلى تحسُّنٍ ملموس، وصولًا إلى إعادة السيطرة على حياته.

لاحظت بصيص أملٍ يلمعُ في عينيه، كغريقٍ يلمحُ يد المساعدة في اللَّحظة الأخيرة، فشعرت مجدولين عندها بالرِّضا العميق، وكأنَّها تمارسُ جوهرَ مهنتها الحقيقي، إعادة الأمل للمرضى وبناء الجسور بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان والعالم الذي بدا له يومًا عدوًّا لا يرحم.

كانت هذه الجلسة واحةً من العقلانيَّة والمنطق وسط صحراء الجنون التي تحاصرها من كلِّ جانب، ذكَّرتها أنَّه ليس كلُّ غامضٍ ومخيف بالضرورة من عالم الشياطين. لكن في أعماقها، كان هناك صوتٌ خافتٌ يهمسُ بأنَّ ما تواجِهُه -ذلك الكيان المسمى شرهوت- يتجاوزُ كلَّ ما تعلَّمتهُ في الطِّبِّ النَّفسي، ويتحدَّى كلَّ القوانين والمنطق، وأنَّ العلم وحده لا يكفي لمواجهة جذور الشَّر التي تتمدَّدُ في حياتها كأذرُعِ أخطبوطٍ عملاق، هذا التَّناقُض الصَّارخ بين عالمِها المهني المضيء، وعالمِها الشَّخصي الغارق في الظَّلام، كان يزيدُ من قلقها، لكنَّهُ في الوقت نفسه يشحذُ عزيمتها.

إلا أنَّ ما لم تكن مجدولين تعلمه، هو أنَّ هذا الهدوء الذي تنفَّستهُ في عيادتها ليس سوى استراحةٍ قصيرة، تشبهُ هدوءَ ما قبل العاصفة، وأنَّ الظِّل الذي يلاحقُها كان قد وجد طريقةً بالفعل إلى عتبةِ عالمِها الآمن، يترقَّبُ اللَّحظة المناسبة التي سينقضُّ فيها عليها من جديد.

في الصمت الذي يسبقُ النوم، شعرتُ بأنفاسٍ غريبة قرب أذني، وصوتُ همسٍ يقول:

الرحلة بدأت الآن... ولا سبيل للعودة.

الختم الكرزي

الفصل الرابع:
بصيص أملٍ في عتمة اليأس ..

وصيَّةٌ من قلبِ الظّلام ..

في تلك الليلة، كان الكابوسُ مختلفًا، وأكثرَ إيلامًا وقسوةً من أيِّ وقتٍ مضى، كأنَّهُ رسالةٌ مباشرة من قلب الجحيم.

لم تجد مجدولين نفسها في الوادي الكرزي المعتاد الذي أصبح رمزًا للرعب والهلاك، ولا في بيتِ جدِّ زينة الموحش الذي تفوحُ منه رائحةُ الموت والجنون، بل كانت في مكانٍ أشبه بسجنٍ تحت الأرض، أو سردابٍ رطبٍ ومظلم، يقعُ في أعماقٍ سحيقة لا يصلُ إليها نور الشمس، ولا أيُّ بصيص أملٍ في الخلاص. جدرانُه الحجريَّة تغرقُ باللَّون الأخضرِ الدَّاكن من فرطِ الرُّطوبة والعفن، ورائحةُ التُّراب المبلَّلِ باليأس تتسلَّلُ كضبابٍ خانقٍ يجمِّدُ الدَّم في العروق.

رأت أمامها زنزانتين متجاورتين، تفصلُ بينهما قضبانٌ حديديَّة صدئة وسميكة، كأنَّها أسنانُ وحشٍ عملاقٍ يستعدُّ لالتهام ضحاياه. في الزنزانة الأولى، كانت امرأةٌ تُشبه زينة كثيرًا، لكنَّها أكبرُ سنًّا، يكسو وجهَها النَّحيل شحوبُ الموت، وقد حَفَرت عليه المعاناة أوديةً من تجاعيد الحزن والهلع.

ملابسُها بالية وممزَّقة، تجلسُ على الأرض الباردة والرَّطبة، وتحدِّقُ في الفراغ بعينين زائغتين فارغتين من أيِّ تعبير، كأنَّ روحَها قد غادرتها منذُ زمنٍ بعيد وتركَت خلفَها مجرَّد هيكلٍ عظميٍّ ينتظرُ الموت ببطء. كانت تلك المرأة هي والدةَ زينة، السيِّدة التي ذهبت بشجاعةٍ ويأسٍ للبحث عن شيخٍ يقال إنّه قادرٌ بالرُّقيةِ الشرعيةِ على إنقاذِ ابنتها من لعنة شرهوت، لكنها لم تعد أبدًا، و كأنَّ الأرض قد ابتلعتها، أو أنَّ شياطين الجحيم قد خطفتها.

وفي الزنزانة المقابلة، شابٌّ يجلسُ القرفصاء في زاويةٍ مظلمة، يطوي جسدَهُ على نفسه كمن يحاولُ الاختفاء على العالم. كانت ركبتاه ملتصقتين بصدرِه، وذراعاه تحيطان بهما كقيدٍ يائس، بينما يهتزُّ جسدُه ببطءٍ رتيب، كإيقاعِ موجةٍ حزينة تضربُ شاطئًا مهجورًا.

يتدلّى شعرُه الطويل الكثيف على وجهِه الشاحب، فيحجُبُ ملامحَهُ كستارٍ من اللَّيل، فلا ترى منه سوى لمحةٍ من عينين زائغتين، غارقتين في بحرٍ من الجنون واليأس، كان ذلك الشاب هو سالم، شقيق زينة الذي بدا وكأنَّه قد فقد عقلَهُ تمامًا، أو تركَهُ عمدًا ليفرَّ من هذا الجحيم.

كان المشهدُ مؤلمًا وقاسيًا على مجدولين على نحوٍ لا يُطاق. وببطءٍ شديد، كأنَّها تبذل جهدًا جبَّارًا يفوقُ طاقة البشر، رفعت والدة زينة رأسها، بعد أن شعرت بوجود مجدولين في ذلك العالم الكابوسي، أو كأنَّ روحَها الأسيرة قد التقطت صدًى لروحٍ أخرى تحملُ بصيصَ أملٍ في هذا الظَّلام الدَّامس.
نظرت إليها مباشرة، وفي عينيها المتعبتين، بريقٌ خافت من وعيٍ متقطِّع، كشمعةٍ توشكُ على الانطفاء في مهبِّ ريحٍ عاتية، أو كنجمٍ يحتضرُ في سماءٍ مظلمة.

تحرّكت شفتاها الجافَّتان المتشقِّقتان بصعوبةٍ بالغة، واستطاعت مجدولين أن تلتقط الكلمات التي همست بها بصوتٍ ضعيف كصرير بابٍ قديم يُفتح بعد طولِ إغلاق:

- «الختم... ابحثي عن ختمِ عمِّي صالح، الختم الأسود، هو مفتاحُ الخلاص أو الهلاك الأبدي، لا تدعيه يحصلُ عليه..».

ثم سقط رأسها مرَّةً أخرى على صدرها، وعادت إلى حالة الذُّهول واليأس التي كانت عليها، كأنَّها قد استنفدت كلَّ ما تبقَّى لها من قوَّة في نُطقِ تلك الكلمات القليلة، أو كأنَّ حارس السِّجن الشَّيطاني قد أسكتَها إلى الأبد.
استيقظت مجدولين وجسدُها يرتجِفُ بعنف، وكلماتُ والدة زينة المؤلمة والمشفَّرة تتردَّدُ في أذنيها كجرس إنذارٍ أخير، أو كوصيَّة مقدَّسة لا بُدَّ أن تنفِّذها مهما كان الثمن، حتى لو كان ذلك يعني مواجهة الموت نفسه.

ما هذا الختم الأسود الذي تحدَّثت عنه؟

هل يختلف عن ختم الخدمة الذي سلمه شرهوت لابنتها زينة؟

وعن القلادة النحاسيَّة التي أعطتني إيَّاها كرزة والتي تحملُ صدى «ذهبه» وروحها العالقة؟

وهل يمكن أن يكون هذا الختم هو السِّلاحَ الوحيد القادر على مواجهة شرهوت؟

أم أنَّه فخٌّ جديد، أشدُّ ظلامًا وخطورة ينصبُهُ لها سيِّدُ الكوابيس، ليقودَها بخطًا ثابتة نحو حتفِها المحتوم؟

الصَّرْخةُ المقطوعة عبر هاتفِ الجحيم ..

بعد يومين على آخر كابوس عاشته مجدولين في سجون شرهوت السفليَّة، حين رأت والدة زينة وشقيقها، وبينما كانت شاردةً تحاولُ استيعابَ ما سمعته ورأته هناك، بدأ الهاتف بالرنين في ساعةٍ متأخِّرة من اللَّيل.

كان الرقم مجهولًا، وراح يتكرَّرُ على الشَّاشة كأنَّ شبحًا يحاولُ التَّواصُل من عالمٍ آخر، أو أنَّها رسالةٌ قادمة من الجحيم نفسه. تردَّدت مجدولين في الرد، لكنَّها لم تشأ أن يجيبَ زوجُها ويغرقَ مثلَها في دوَّامة الظلام.

صار الخوفُ من المجهول جزءًا من روتينها اليومي، وكلُّ رنَّة باتت تحملُ نذير شؤم، ومع ذلك، شيءٌ في داخلها -ربَّما بقايا فضولِها المهني القديم، أو يأسُها الذي يجبرُها على التَّمسُّك بأيِّ خيطٍ من الأمل، ولو كان مشتعلًا بالنار- دفعها أخيرًا لالتقاط السمَّاعة.

- «ألو؟..».

قالتها بصوتٍ خافت، وهي تتوقَّعُ سماعَ سخرية السيِّدة وشمة، أو حتَّى صوت شرهوت نفسه،

ذلك الصوت الذي أصبح يتردَّدُ في كوابيسها كأنَّهُ لحنٌ جنائزي. لكن جاءَها صوتٌ أنثويٌّ مشوَّش وضعيف، تتخلَّلُه ضوضاءُ كثيفة، كأنَّ المتَّصلة في مكانٍ بعيدٍ جدًّا، أو تتحدَّثُ من تحت الماء، أو من وراءِ حجابٍ من الظلمة واليأس.

- «دك... دكتورة مجدولين؟ هل تسمعينني جيِّدًا؟ أرجوكِ، ليس لديَّ الكثير من الوقت».

تجمَّدت مجدولين في مكانها، وقلبُها يقفزُ إلى حنجرتها، لقد عرفت الصوت رغم ضعفه وتشويشه، لم يكن صوت كرزة الغامض والمخيف، بل صوت زينة الحقيقي، صوت الفتاة الصغيرة الخائفة التي دخلت عيادتها في يوم منحوس، وأصبحت هي الأخرى ضحيَّة لهذا الشر القديم.

- «زينة، هل هذه أنتِ حقًّا؟ أين أنتِ؟ وماذا يحدث لك؟ وهل أنتِ بخير؟»

- «لا أعلم أين أنا بالضبط، مكانٌ مظلم، قارسُ البرودة، أشبهُ بقبرٍ أو زنزانةٍ تحت الأرض.

أسمعُ أمِّي وأخي سالم يتألَّمان كثيرًا بين الحين والآخر. شرهوت السبب وراء كل هذا العذاب الذي يحيط بنا».

- «زينة، اهدئي وحاولي أن تخبريني بكلِّ شيءٍ يساعدُنا على إيجادك».

- «لا أستطيع، كلُّ شيءٍ مظلمٌ هنا، أشعرُ أنَّ حياتي تُسحبُ منِّي ببطء، كشمعةٍ تذوب..».

ثم ساد صمتٌ قصير، وجاء صوت زينة بإلحاحٍ ويأس:

- «دكتورة... يجب أن تصدِّقيني، شرهوت يريدُ القلادة؛ ليس قلادتكِ النُّحاسيَّة التي تحملُ صدى ذهبه فحسب، بل قلادة جدي، القلادة السوداء التي خبَّأها في بيتنا القديم في الوادي،

ذلك البيت الملعون الذي يحملُ ختم العائلة المشؤوم، إنَّها أقوى وأخطر بكثيرٍ مما تتصوَّرين،

إنَّها مفتاحٌ لختمٍ أقدم قد يحرِّرُنا جميعًا، أو يدمِّرُ كلَّ شيءٍ إذا وقع في اليد الخطأ».

- «قلادةُ جدِّكِ مفتاحٌ لخَتمٍ أقدم، ماذا تقصدين؟»

- «لا وقت للتفاصيل... جدِّي لم يكن مجرَّد خادمٍ بسيطٍ لشرهوت كما يظنُّ البعض، فقد كان يعرفُ أسرارًا عن ذهبه الحقيقيَّة، وعن البوَّابة التي تفصلُ بين العوالم، وعن الطريقة لفتحِ تلك البوَّابة وغيرها أيضًا، احذري يا دكتورة، إنَّهُ يسمعُ كلَّ شيء، ويخطِّطُ لشيءٍ فظيعٍ يتعلَّقُ بكِ وبتلك القلادة السوداء».

وقبل أن ينقطعَ الصوتُ تمامًا قالت بسرعة، وكأنَّها تريد أن تتركَ لها خيطًا تهتدي به لاحقًا:

- «إذا وصلتِ إلى أطراف القرية، حيث تتعانقُ الجِبال مع الظِّلال، فستجدين البيت عند طرف الوادي الكبير، خلف صفٍّ من أشجار الحماط الكبيرة، هناك صخرةٌ بيضاء ملساء بجانب بابه، كأنَّها حارسٌ صامتٌ منذُ آلافِ السنين».

ثم بدأ الصوت يضعف حتَّى انقطعَ فجأة بصرخةٍ مكتومة حادَّة كأنَّ يدًا قويَّة كمَّمت فمها، تلاها ارتطامٌ عنيف، ثم صمتٌ مُطبقٌ أعمق من الظَّلام نفسه. ظلَّت مجدولين ممسكةً بالسمَّاعة، وأصداءُ تلك الصرخة المقطوعة تتردَّدُ في عقلِها، كأنَّ الهاتف أصبح ثقبًا أسودَ ابتلع ما تبقَّى من أمل. بدأ الخوف يضغطُ على صدرها، وكلمات زينة الأخيرة تتشابكُ في ذهنِها مع صور القلادة والختم والبوَّابة، حتَّى لم تعد تميِّز الحقيقة من الوهم.

لم تدرك إلا وهي تستيقظُ جالسةً على سريرها بجانب زوجها الذي ربت على كتفها قائلًا:

- «كابوسٌ آخر يا حبيبتي، يبدو أن عملك ينعكسُ على صحتك».

كانت أنفاسُها متقطِّعة، وعرقٌ باردٌ يغمرُ جبينَها، بينما بقي رنينُ الهاتف يطنُّ في أذنيها كأنَّهُ لم ينقطع أبدًا، وحين نظرت حولها أدركت أنَّ الغرفة ساكنة تمامًا، وأنَّ ما رأتهُ، وسمعته، لم يكن سوى جزءٍ جديدٍ من كوابيسها التي لا تنتهي.

لقد بات جليًّا لديها أنَّ شرهوت ليس مجرَّد ظلٍّ يطاردُها في الكوابيس، بل خصمٌ يسعى إلى قوَّةٍ خبيثة، والآن أصبح الطريقُ إلى القلادة مرسومًا في ذهنِها، ومعهُ خطرٌ لا يقاس.

- «لا عليك يا حبيبي، سأنالُ قسطًا من الرَّاحة، وسأكون بخير».

حين تكلّمت الخرائط الخفيَّة ..

بعد أيَّامٍ من البحث الحذر والمضني، الذي بدا أشبه بمحاولة التَّنقيبِ عن إبرةٍ في كومة قشٍّ تتناثرُ في مهبِّ ريحٍ عاتية، عاشت مجدولين وصديقتها أنين بين القلق والترقُّب، تتشبَّثان ببصيص أملٍ خافتٍ يوشكُ أن ينطفئ. وأخيرًا، استطاعت أنين عبر شبكةِ معارفِها الواسعة والمتشعِّبة -التي تمتدُّ إلى أماكن وشخصيَّات ما كانت لتخطرَ ببال مجدولين يومًا- أن تصلَ إلى اسمٍ بدا كأنَّهُ طوقُ النَّجاة في خضم هذا البحر الهائج من الرعب والمجهول.

كان «الدكتور رضوان» أستاذًا متقاعدًا في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) والفلكلور، وقد قضى عقودًا في دراسة الأساطير والمعتقدات الشعبيَّة في شبه الجزيرة العربيَّة، مع تركيزٍ خاصٍّ على المناطق الجبليَّة النائية التي تنحدرُ منها زينة، تلك الأرضِ الغنيَّة بالحكايات عن الجنِّ والكنوزِ المخفاة والعوالمِ المتداخلة مع عالم البشر. عُرِفَ بأبحاثِه العميقة، ومكتبته التي قيلَ إنَّها تحوي مخطوطاتٍ ووثائقَ نادرة لا تقدَّرُ بثمن، وحرصه على سريَّة من يلجؤون إليه طلبًا للمشورة أو المعرفة.

وافقت مجدولين على الفور، بعد أن شعرت أنَّ ضوءًا بعيدًا في أفق يأسها قد بدأ يلمعُ، وإن كان خافتًا. بعد جهدٍ شاقٍّ واتصالاتٍ عديدة، تمكَّنت أنين أخيرًا من انتزاع موعدٍ للقاء الدكتور رضوان في مكتبته الخاصَّة الملحقة بمنزله.

مكتبةٌ وصفتها أنين بأنَّها كهفٌ سرِّيٌّ أشبهُ بمغارة علي بابا، تختزنُ كنوزًا من المعرفة المنسيَّة، وربَّما مَدخلاً خفياً إلى عالمٍ آخر...عالم الأسرار المظلمة.

استقبلهما الدكتور رضوان، رجلٌ في أواخر السِّتينيات، يفيضُ وقارًا وحكمةً، كأنَّ تجاعيدَ وجهِه تحملُ خرائطَ لعوالمَ قديمة. بلحيته البيضاء الكثيفة التي تمتدُّ إلى صدره، وعينَيه الثَّاقبتين خلف نظَّارةٍ عتيقة تنفذان إلى ما وراء الحُجُب، وتقرآنِ ما تُخفيه النُّفوسُ من آلامٍ وأسرارٍ.

كان هادئًا، كأنَّ الدهشة قد غادرت قلبه إلى الأبد، فلا هذا العالم ولا سواه يستطيعُ تعكير صفوه.

جلستا أمامه، وسط عبقِ الكتبِ القديمة والجُلُودِ العتيقة الممزوجةِ بعبقٍ خفيفٍ من بَخُورٍ نادرٍ بعثَ في مجدولين شعورًا غريبًا يجمعُ بين الرَّهبة والسكينة. بدأت حديثها بصوت متردِّد خشية أن تُتَّهم بالجنون أو المبالغة، لكنَّها ما لبثت أن انسابت كلماتُها كأنَّ سدًّا من الخوف قد انهار. سردت قصَّتها منذ لقائها بزينة خادمة شرهوت، وما تلاه من كوابيس عن الملك شرهوت الذي يجمعُ بين قوَّةٍ مطلقة وحزنٍ لا نهاية له. تحدَّثت عن عالمِهِ الكرزي الملعون الذي تجرُّها إليه كوابيسها كلَّ ليلة.

ووصفت له بدقَّة القلادة النحاسيَّة التي تشعرُ بحرارتها كجمرةٍ على عنقها، واللَّون الكرزي الذي يطاردُها في يقظتها ومنامها، والسيِّدة وشمة التي تتحدَّثُ بكلماتٍ كالأفاعي السَّامة، ثم توقَّفت فجأة، كأنَّها تذكَّرت خريطة خفيَّة رسمتها لها زينة، وقالت وهي تحدِّقُ في عينيه:

- «قبل أيَّام، رأيتُ في كابوسي الذي اختلط مع واقعي على نحوٍ مخيف، أنَّني تلقَّيتُ اتصالًا من زينة نفسها. كان صوتُها ضعيفًا ومشوَّشًا، لكنَّها أخبرتني عن قلادةٍ سوداء خبَّأها جدُّها في بيته الحجري عند أطراف القرية، حيثُ تتعانقُ الجِبال مع الظِّلال، خلف صفٍّ من أشجار الحماط الكبيرة، هناك صخرةٌ بيضاء ملساء بجانب بابه، كأنَّها حارسٌ صامتٌ منذ قرون».

شعرت أنين بالقشعريرة تسري في عروقها وهي تسمعُ هذا الوصف للمرَّة الأولى، بينما ظلَّ الدكتور رضوان صامتًا، يدوِّنُ الملاحظات في دفترٍ جلديٍّ صغير، كأنَّ تلك الكلمات أعادت إحياءَ مسارٍ قديم يعرفُه جيِّدًا.

ولم تنسَ مجدولين أن تذكُرَ كلمة «الخَتم» التي همست بها والدة زينة في ذلك السِّجن الكابوسي، وأنَّ القلادة السَّوداء قد تكونُ مفتاحًا لخَتمٍ أقدمَ وأخطرَ، قد يكونُ مفتاحَ الخلاص أو الهلاك لهم جميعًا.

كان الدكتور رضوان يستمعُ بانتباهٍ شديد، يقاطعُها بأسئلةٍ مقتضبة، يطلبُ فيها توضيحًا لتفصيلٍ صغير، أو تاريخًا لحدثٍ معيَّن، أو وصفًا دقيقًا لرمزٍ رأته، أو شعورٍ غريبٍ أحسَّت به.

لم تبدُ على وجهِه أيُّ علامةٍ على الدَّهشة أو الاستنكار لما يسمعه، كأنَّهُ قد اعتادَ أن يسمعَ قصصًا مشابهة.

ذلك الهدوء العميق الذي كان يشعُّ منه منحَ مجدولين شعورًا متناقضًا بالارتياح؛ لأنَّها وجدت أخيرًا من يستطيع فهم ما تمرُّ به دون أن يتهمها بالجنون، وشعورًا آخر بالخوف من أن يكونَ ما تعيشه حقيقيًّا بالفعل، وله جذورٌ في عوالم مظلمة تحكمُها قوانينُ أخرى.

عوالمُ يسهلُ الدخول إليها، ولكنَّ الخروج منها يكادُ يكون مستحيلًا.

وقبل أن ينتهي اللقاء، رفع الدكتور رضوان رأسَهُ عن دفترِه وحدَّق في عيني مجدولين نظرةً طويلة حملت مزيجًا من التَّحذير والمعرفة، وقال بنبرةٍ هادئة، كأنَّهُ يخشى أن تُلتَقط كلماتُه من آذانٍ تسترقُ السمع في الغرفة:

- «ذلك البيت، وذلك الرجل «صالح أبو سعيد»، لم يُذكَر اسمُه أمامي منذُ أكثرَ من ثلاثين عامًا.

كانت سمعتُه في تلك المنطقة تسبقُ خطواته. يقال إنَّهُ كان يقيمُ طقوسًا ليليَّة غريبة، يستدعي فيها من يسمُّون أنفسَهم حرَّاس العهود، ويتحدَّثُ معهم كما يتحدَّثُ المرءُ إلى أصدقاءَ قدامى.

بعضُهم أقسَمَ أنَّهُ كان يتنقَّلُ بين العوالم، وآخرون قالوا إنَّهُ عَقَدَ عهدًا لا ينكسر مع كيانٍ أقدمَ من شرهوت نفسه.

إذا كانت كلمات زينة صحيحة، فأنتم على وشك السَّير في طريقٍ لا عودةَ منه».

تبادلت مجدولين وأنين نظرةً صامتة، كأنَّ الاسم انطلق في الغرفة كتعويذةٍ قديمةٍ أُعيدَ إحياؤُها بعد سباتٍ طويل. شعرت مجدولين بقشعريرة باردة على أطرافِ أصابعِها، كأنَّ الهواء صار أثقل، بينما ارتجفَ جفنُ أنين دون إرادةٍ منها. لم يكن الاسمُ مجرَّد معلومةٍ جديدة، بل كان مفتاحًا يفتحُ بابًا لم تكن أيٌّ منهما مستعدَّةً لعبوره، ومع ذلك بات واضحًا أنَّ العودة إلى الوراء لم تعد خياراً متاحًا.

بوابة الأساطير وحقيقة شرهوت ..

بعد أن أنهت مجدولين سرد قصَّتها، تلك الحكاية الطويلة التي استنزفت روحَها كأنَّها تحفرُ في ذاكرتها بأظافرها، خيَّمَ صمتٌ ثقيل على أرجاء المكتبة، لم يكسره سوى حفيفِ صفحات كتابٍ قديم كان الدكتور رضوان يقلِّبُها ببطء، كمن يبحثُ عن إجابةٍ لسؤالٍ لم يُطرَح بعد.

نهض من مقعدِه واتَّجه نحو أحدِ الرُّفوف العالية، حيث تراصَّت المخطوطات والكتب النادرة كأنَّها حرَّاسٌ لأسرار العالم السفلي، سحب كتابًا جلديًّا قديمًا سميكًا، بدا كأنَّهُ مخطوطٌ يدوي كُتِبَ بحبرٍ باهتٍ على ورق بردي أصفر اللون، تصفَّحَهُ ببطء، وعيناهُ تتفحَّصان كلماته ورموزه بعناية الخبير الذي يعرفُ قيمة ما بين يديه، والذي أفنى عمره كلَّه في مطاردة مثل هذه الأسرار، ثم عاد وجلسَ أمامهما، ووضع الكتاب المفتوح على الطاولة الخشبيَّة العتيقة التي كانت تفوحُ منها رائحة الزمن.

وقال بصوتٍ هادئٍ وعميق:

- «ما تمرِّين به يا دكتورة مجدولين، أمرٌ خطيرٌ ونادرٌ بلا شك، لكنَّه للأسف، ليس فريدًا من نوعِه في سجلَّات الموروث الشعبي والأساطير القديمة التي توارثتها الأجيال في هذه المنطقة وفي مناطق أخرى أيضًا، وإن اختلفت الأسماء والتفاصيل، فالجوهرُ واحدٌ».

شعرت مجدولين بقلبِها يخفقُ بعنف، وبأنفاسِها تتسارعُ في صدرها دون إرادةٍ منها، كأنَّ وقعَ كلماتِه أشبهُ بجرس إنذارٍ يطرقُ أبواب روحِها. توقَّفَ رضوان عن الكلام فجأة، ونظر إلى عنُقِها بنظرةٍ متفحِّصة، ثم قال:

- «هل يمكنني أن أرى القلادة النحاسيَّة التي تحدَّثتِ عنها؟»

- «لا أستطيع، فهي لا تظهرُ إلا في كوابيسي، وحين أستيقظُ أجدُها تبدأُ بالغورِ داخلَ عُنُقِي، وأحيانًا تظهرُ عندما أكونُ في خلوةٍ تامَّة مع نفسي؛ في العيادة أو في المنزل، كأنَّها تختارُ بنفسِها

متى تكشفُ عن وجودِها داخلي».

مدَّ يده وأشار بخفَّة إلى بشرتها عند عظمة الترقوة، حيث يظهر شكلٌ غامضٌ، أشبهُ بحرقٍ قديم، مرسومٌ بدقَّة على هيئة القلادة نفسَها، مع خطوطٍ دقيقة كالنُّقوش، تبدو كأنَّها محفورة في الجلد منذُ زمنٍ بعيد. تراجعت مجدولين خطوةً إلى الوراء، وقد اجتاحها شعورٌ بالهلع والخوف، بينما قال الدكتور رضوان بنبرةٍ ثقيلة:

- «هذا ليس مجرَّد أثرٍ عادي... إنَّه ختمٌ أو علامةُ ارتباط، شيءٌ ما يربِطُك بالقلادة وبعالم صاحبتها أيضًا، حتَّى وهي غائبة عن عينيك».

ارتجفت أنين وهي تتابِعُ المشهد، كأنَّها أدركت أنَّ القلادة أداةٌ خطيرة، وجسرٌ لا يُرى، يربطُ مجدولين ببوَّابات العالم السفلي دون أن تشعر.

ثم أشار الدكتور رضوان إلى صفحةٍ في المخطوط القديم رُسم عليها شكلٌ غريبٌ ومخيف لكائنٍ نصفُه بشري، ذو ملامحَ ملكيَّة قاسية، ونصفُه الآخر يشبِهُ وحشًا بحريًّا عملاقًا ذا حراشف لامعة، وأنيابٍ حادَّة، يحيطُ به طوفانٌ ورموزٌ فلكيَّة كالأقفال:

- «هذا هو شرهوت، الاسم الذي يتردَّدُ ذكرُه في بعض النصوص المنسيَّة، كاسمٍ لواحدٍ من ملوك الجن الأقوياء الذين يسكنون أعماق البحار، ويتحكَّمون في عوالم الكوابيس، ويملكون قدرة التَّأثير على عقول البشر، وسلب إرادتهم وتحويلهم إلى خدمٍ أو عبيد، ويُقال إنَّهُ يشتهرُ بهوسِه بالجمال النَّادر، وبقدرته على امتلاك الأرواح التي تحملُ صدًى لأرواحٍ أخرى».

توقَّف لحظة وأشار لمجدولين بإصبعه النَّحيل المرتجف:

- «هذه القلائِدُ والأختام في هذه العوالم ليست مجوهرات عاديَّة كما هي الحال في عالمنا، إنَّها أوعيةٌ للأرواح، أو أدواتٌ لفتح أو إغلاق البوَّابات بين العوالم.

تحفظُ أحيانًا جزءًا من طاقة كائن ما أو روحه، وأحيانًا تحفظُ أقفالًا لسجونٍ أبديَّة».

أضاف وهو يقرأُ صفحةً أخرى:

- «أمَّا عن شجرة الحماط التي تحدَّثتِ عنها، فهي ليست من باب المصادفة، فجدُّ زينة لم يكن رجلًا عاديًّا في نظر الكثيرين من أهل قريته.

هناك رواياتٌ تُلمِّحُ إلى أنَّه كان آخر من امتلك ختم الخدمة لدى أحد ملوك الجن، ويُقال إنَّه أخفى ذلك الختم في بيت الحماط، بجانب تلك البئر الحجريَّة داخل بيته والتي يقالُ إنَّها بوَّابة بين عالمين، لهذا السبب انتقلت لعنة الخدمة بعد اختفاء الجد إلى حفيدته زينة، تاركًا خلفه حارسًا لهذا السِّر، أو أسيرًا له».

ثم مال نحو مجدولين، وعيناه تشعَّان بجديَّة حادَّة:

- «الختم الذي ذكرته والدة زينة في كابوسك، قد يكون هو المفتاح الحقيقي لفهم كلِّ ما يحدث،

وربَّما هو نقطة قوَّتك، لكن عليكِ أن تعرفي أنَّ شرهوت لن يسمح لكِ باكتشاف طبيعته بسهولة، كلَّما اقتربتِ من الحقيقة أكثر، زادت محاولاتُه لزجِّك في عالمه».

أنهى حديثَه وهو يغلقُ المخطوط القديم بعناية، وقال بصوتٍ محمَّلٍ بالتحذير:

- «المعرفة في هذه العوالم سلاحٌ ذو حدَّين، قد تفتحُ لك طريق النجاة، وقد تجرُّكِ إلى أهوالٍ قد تحطِّمُ أقوى العقول وأصلب القلوب».

وبينما كانت كلماته الأخيرة تتلاشى في الهواء، شعرت مجدولين أنَّ القلادة النحاسيَّة التي على

عنقها أصبحت أثقل فجأة كأنَّها بدأت تنبضُ بحرارةٍ بطيئة، أو أنَّ ما قيل قد أيقظ شيئًا نائمًا في أعماقِها.

ومنذُ تلك الليلة، لم تعد الكوابيسُ تزورني...

بل أصبحتُ أنا من يزورُها كأنَّني أسيرُ نحو بوَّابةٍ لا تُغلق، تنتظرُ أن تبتلعني.

الختم الكرزي

الفصل الخامس:
حقيقة ذهبه والقلائد ..

أروقة المعرفة الملعونة ومكتبة سيِّد الكوابيس ..

في تلك الليلة، لم تستطع مجدولين النوم إلا بعد صراعٍ مريرٍ مع نفسها، اضطرت بعده إلى تناول جرعةٍ مضاعفة من المهدِّئات التي صارت تعتمدُ عليها سرًّا، في محاولةٍ يائسةٍ للهروب من كوابيسها التي لم تعد تتركها حتَّى في يقظتها، وتجعلُها تشكُّ في كلِّ شيءٍ حولها حتَّى في نفسِها.

لكن بمجرَّد أن أغمضت عينيها، واستسلمت لذلك النوم المتقطِّع الذي يشبهُ الموت المصغَّر، وجدت نفسَها في كابوسٍ جديد لا يحملُ الرُّعب الصَّاخِب المعتاد للوادي الكرزي، ولا الألم الحاد لسجون شرهوت، بل رعبًا صامتًا خانقًا، يوحي بمعرفةٍ محرَّمة وقوَّةٍ لا يمكنُ تصوُّرها، كأنَّها دخلت إلى قدسٍ من أقداس عالم الظلام... إلى مكتبة الشَّيطان نفسه.

كانت تقف وسط مكتبةٍ ضخمة، لا نهائيَّة، تمتدُّ رفوفُها المصنوعة من خشبٍ أسود كالفحم في عتمةٍ أبديَّة. لم تكن الكتبُ مصنوعةً من ورق، بل من مادَّةٍ غريبة تشبهُ الجلد المدبوغ بلونٍ أسود قاتم، أو من جلود كائناتٍ غريبة لم يعرفها بنو البشر يومًا، لا تزالُ تحملُ دفئًا حيًّا. كانت عناوين الكتب مكتوبةً بلغةٍ متوهِّجة بلون الدَّم، تتراقصُ حروفُها كألسنة لهبٍ صغيرة، تتغيَّرُ أشكالُها كلَّما حاولت مجدولين التركيز عليها، كأنَّها طلاسمُ حيَّة تحرسُ أسرارَها الملعونة.

امتزجت في الهواء رائحةُ الغبارِ القديم والعفنِ العالقِ منذُ دهور مع نفحةٍ خفيفةٍ من رائحة الكبريت المحترق، تلك الرائحة التي أصبحت علامةً على حضور شرهوت في كلِّ مكان والتي تثيرُ في نفسِ مجدولين مزيجًا من الخوف والاشمئزاز.

كانت تمشي بين الرفوف بحذر، تشعرُ بأنَّ كلَّ كتابٍ هنا يحوي تاريخًا للعهود الملعونة، والنُّفوسِ المفقودة، والأرواحِ التي باعت ذاتَها للظَّلام مُقابِلَ لحظةِ قوَّةٍ أو وهمٍ بالخلود.

ظهر شرهوت أمامها فجأة، دون هيئته الملكيَّة أو الشيطانيَّة التي اعتادتها، بل بهيئة أمين مكتبةٍ عجوز، يرتدي عباءَةً داكنة، ونظَّارات نصف دائريَّة تستقرُّ على أنفه المعقوف، ينظرُ إليها بابتسامةٍ ماكرة، كأنَّه معلِّمٌ يستعرضُ كنوزَهُ أمام تلميذٍ فضولي. قال بصوتِهِ العميق الذي اخترق عِظامَها، لكنَّه كان يحملُ هذه المرَّة نبرةً ساخرة وهادئة:

- «المعرفة قوَّة يا ذهبه، أليس كذلك؟ لكن بعض المعارف، يا صغيرتي ثمنها باهظٌ جدًّا، ثمنٌ قد يحرِقُ روحَكِ إلى الأبد ويحوِّلُها إلى رماد».

لوَّحَ بيده ببطء، فسقطَ كتابٌ ضخم من أحد الرفوف، غلافُه من جلد أفعى عملاقة متشقِّقة، وانفتح الكتابُ على صفحةٍ بعينها كأنَّه أطاع أمرًا خفيًّا.

كانت رسومات الصفحة تحكي طقوسًا سحريَّة قديمة، وكلمات بلغةٍ لم تفهمها، لكنَّها استنتجت من الصور أنَّ الطَّقس يختصُّ بخَتمِ العهد مع جني قوي. طقسٌ يتطلَّبُ تضحياتٍ وقرابين دمويَّة، وربَّما روحًا بشريَّة كاملة تُقدَّم على مذبح الظلام. اقترب شرهوت منها بخطواتٍ بطيئة، وانعكس بريقٌ خبيثٌ من عينيه خلف نظَّارته القديمة:

- «هل تبحثين عن الحقيقة يا مجدولين؟

عن أسرار هذا الكون الخفي الذي يتجاوزُ فهمك المحدود؟

الحقيقة هنا بين دفتي هذه الكتب الملعونة التي كُتِبَت بدم الشياطين ودموع البشر الخونة.

لكن هل لديكِ الشَّجاعة الكافية لقراءتها؟

هل أنتِ مستعدَّة لدفع هذا الثَّمن الباهظ لتلك المعرفة؟»

ثم اختفى فجأة كما ظهر، تاركًا مجدولين وحدها في تلك المكتبة المظلمة التي لا نهاية لها، بينما بقي الكتاب أمامها، يشعُّ بضوءٍ أحمر خافت، كأنَّه يناديها أو ينصبُ لها فخًّا جديدًا...

فخَّ المعرفة المحرَّمة التي قد تكونُ أخطر من أيِّ مواجهةٍ جسديَّة، وقد تكون مفتاح خلاصها أو بداية هلاكها.

استيقظت مجدولين تلهث، وقلبُها يخفقُ بعنف، مع شعورٍ ثقيلٍ بالرهبة يضغطُ على أنفاسها، كأنَّها لمست شيئًا يجب على البشر أن لا يلمسوه أبدًا. مدَّت يدها إلى عنُقِها، فوجدت أثرَ القلادة النحاسيَّة يحترقُ بحرارةٍ خافتة، كأنَّ ما جرى لم يكن حلمًا بل اتصالًا مباشرًا بعالم سيِّد الكوابيس.

خرائطُ الظِّلال ومفاتيحُ المجهول ..

لم تمضِ سوى أيَّامٍ قليلة على الكابوس الأخير، حين استيقظت مجدولين وهي تلهث، وحرارة القلادة النحاسيَّة على عنقها ما تزالُ تحرقُ بشرتها، كأنَّها خرجت للتو من مكتبة سيِّد الكوابيس، حتَّى جاءَها اتصال الدكتور رضوان الذي كان صوته يحملُ نبرةً حاسمةً لا تحتملُ التأجيل:

- «يجب أن تأتيا فورًا، لقد وجدت شيئًا مهمًّا».

بضعُ كلماتٍ فقط كانت كافية لجعل قلب مجدولين يعتصر بالقلق والانقباض في الطريق برفقة أنين. كان شعورُ الترقُّب الممزوج بالخوف يثقلُ أنفاسَهُما، كأنَّهما تسيران نحو مصيرٍ لا فكاك منه. استقبلهما رضوان في مكتبته المليئة برائحة التاريخ وخشب الصندل الجاف. بدا منهكًا، وعيناه خلف نظَّارته السميكة تحملان مزيجًا من الإثارة والقلق. وعلى الطاولة أمامَه كتبٌ جلديَّة قديمة مفتوحة على صفحاتٍ معيَّنة، تضمُّ رسومًا توضيحيَّة لرموزٍ فلكيَّة معقَّدة، وخرائط، وبعض الأحجار الكريمة الصغيرة ذات الألوان المتوهِّجة التي قيل إنَّها تُستخدَمُ للكشف عن العوالم الخفيَّة أو للتواصل مع سكَّانِها:

- «لقد وجدتُ بعض الأمور المثيرة للقلق والاهتمام على نحوٍ لا يصدَّق».

ثم أضاف، كأنَّه يروي وصيَّةً من عالمٍ آخر:

- «في الأساطير القديمة شرهوت ليس ملكًا للبحار والكوابيس فقط، فهو حارسُ بوَّابة ضخمة تفصلُ بين عالم البشر، وعوالم سفليَّة تسكنُها كائناتٌ أقدم من الجن، يجب أن لا يكشف عنها».

ثم أشار إلى رسمٍ دقيق في أحد المخطوطات، يُجسِّدُ امرأةً ذات شعرٍ طويل يتدفَّقُ كأمواج بحرٍ هائجٍ في ليلةٍ عاصفة. تختزنُ عيناها سحرًا غامضًا وقوَّةً لا يمكنُ للكلمات أن تصفها، وتحيط بها هالةٌ من نورٍ فضِّي، كأنَّ القمر انسكب حولها وتجسَّد في هيئتها، أو لعلَّها هي القمر وقد هبط إلى الأرض

في صورتها. كانت تقف شامخةً أمام بوَّابةٍ دوَّامية جبَّارة، مصنوعة من الماء والنار والظَّلام، كعينٍ كونيَّةٍ هائلة انفتحت على المجهول.

- «هذه هي ذهبه... ليست مجَّرد زوجة لشرهوت، بل مخلوقٌ أسطوريٌّ من كائنات البحر الأولى. كيانٌ يضجُّ بقوَّة المحيطات جميعِها، ويختزنُ أسرار الكنوز الغارقة في الأعماق التي لم يمسَّها نورُ الشَّمس قط. لم يتَّخذها شرهوت زوجةً بالمفهوم البشري المعهود، بل ارتبط بها بعهدٍ أزلي، يربطُ مصيره بمصيرها، ليستمدَّ من قوَّتها الهائلة وسلطانِها على الأعماق. صارت جزءًا من آليَّة حراسته للبوَّابة الفاصلة بين العالمين، وكأنَّها القفل وهو المفتاح، أو لعلَّ العكس هو الصحيح».

نظرت مجدولين إلى أنين بقلقٍ متزايد، بينما أخذت خيوطُ اللُّغز تتشابك وتتعقَّد أكثر كلَّما اقتربتا من جوهر حقيقة هذه القوَّة الأزليَّة التي ينهارُ العلمُ والمنطق أمامها. سألت مجدولين، وهي تشعرُ ببرودة القلادة النحاسيَّة على عنُقِها، كأنَّها تتفاعلُ مع ذكر اسم ذهبه:

- «وماذا عن القلائد يا دكتور؟

القلادة النحاسيَّة التي معي والقلادة السوداء التي مع جدِّ زينة والتي وصفتها بأنَّها مفتاح؟»

أجاب رضوان وهو يشيرُ إلى رسمٍ آخر في المخطوط، يصوِّرُ قلادتين متشابهتين في بعض الرموز الأساسيَّة لكنَّهما مختلفتان تمامًا في جوهرهما ومادَّتهما كأنَّهما وجهان لعملةٍ واحدة، أحدهما مضيء والآخر مظلم.

- «القلادة النحاسيَّة التي معك، تبدو -كما توقعتُ- صدًى أو جزءًا من قلادة ذهبه الأصليَّة، ربَّما صنعها شرهوت بعد اختفائها الغامض، لاستنساخ قوَّتها أو جذب روحها، أو لاستدراج وعاءٍ بشريٍّ قادرٍ على حمل هذه الطاقة، وأنتِ على ما يبدو، أصبحت هذا الوعاء».

ثم أشار إلى القلادة السوداء في الرسم:

- «أما هذه، فتشير النصوص الأقدم إلى أنَّها أحد المفاتيح النادرة والفريدة، صُنعت من مواد لا تنتمي لعالمنا، ربَّما من نيازك ساقطة، أو من قلب براكين المحيطات الغارقة. استُخدمت هذه المفاتيح لفتح وإغلاق البوَّابات بين العوالم، أو لربط الكيانات القويَّة بعهودٍ لا يُمكن انتهاكُها إلا بثمنٍ فادح، قد يكون روح مستخدم المفتاح نفسه، أو مصير عالمٍ بأكمله يتلاشى بين يديه».

ساد صمتٌ ثقيل، لا يقطعه سوى تكتكة ساعة قديمة على الجدار قالت مجدولين بارتجاف:

- «هل تعتقد أنَّ شرهوت يريدُ منِّي أن أجد قلادة الجد السوداء لأجله؟»

- «هذا احتمالٌ واردٌ جدًّا، بل هو الأرجح، إمَّا أنَّ هناك حمايةً قديمة تمنعُه من الوصول إليها بنفسه، أو أنَّه يحتاجُ إلى يدٍ تحملُ صدى قوَّة ذهبه لتفعيلها، يدِك أنتِ. في الحالتين وقوع تلك القلادة السوداء في يده، أو استخدامها بطريقةٍ خاطئة من قبلك تحت تأثيره أو خديعته، قد يعني ذلك فتحَ تلك البوَّابةِ الكونيَّةِ على مصراعيها، وإطلاقَ العنان لقوىً لا يمكنُ التنبُّؤ بعواقبها، وربَّما كانت هي السبب في اختفاءِ ذهبه».

الخيطُ الفضي ووشمُ الخيانة ..

في اليوم التالي، وبينما كانت مجدولين ما تزالُ تحت تأثيرِ صدمةِ الحقائقِ المُقلِقة التي كشفها الدكتور رضوان، شعرت كأنَّها أصبحت جزءًا من لعبةِ شطرنج مرعبة، قطعُها ملوكُ الجنّ وحرَّاسُ البحرِ القدامى وملوكُ الكوابيس. كانت مجدولين تحاولُ استعادة اتِّزانِها في العيادة حين انفتح الباب فجأة لتدخلَ السيِّدة وشمة بلا موعد، كما اعتادت دومًا أن تظهر؛ مباغِتة ومثيرة للريبة، كأنَّ حضورَها نفسَه نذيرُ شؤمٍ يسبقُ كارثةً وشيكة.

ترتدي العباءة السوداء ذات الخيوط البرَّاقة التي بدت كأنَّها نُسِجَت من عتمة اللَّيل المكدَّس، أو من شعر شيطانةٍ فاتنة. وعلى وجهها ارتسمت تلك الابتسامة الملتبسة التي جمعت بين جاذبيَّةٍ غامرة وخُبثٍ دفين لا نهاية له. ابتسامةٌ اعتادت مجدولين أن تراها فتنقبضَ روحها.

- «أعتذرُ عن المجيء دون موعدٍ يا دكتورة».

قالت وشمة بنبرةٍ هادئة واثقة، كأنَّها صاحبةُ المكان، أو كيانٌ لا يحتاجُ إلى إذنٍ للدخول أو الخروج.

- «لكنَّني شعرتُ برغبةٍ مُلِحَّة في رؤيتك، كأنَّ هناك خيطًا خفيًّا، أو سلسلة فضيَّة غير مرئيَّة تربطُ بيننا، وتجعلُني أشعرُ بما تشعرين به، وأعرفُ ما يدورُ في ذهنك».

أشارت لها مجدولين بالجلوس محاولةً إخفاء ارتباكها:

- «تفضَّلي بالجلوس سيِّدة وشمة، أم أن هذه ليست مجرَّد زيارة وديَّة، بل رسالة من طرفٍ آخر؟!»

جلست وشمة بأناقةٍ مدروسة، وعيناها تمسحان المكتب بنظراتٍ حادَّة، تخترقُ الجدران لتصلَ إلى أعمقِ مخاوف مجدولين. قالت بهدوء:

- «كنتُ أفكِّرُ في حديثنا الأخير عن الأقدار المحتومة والكنوز المخفاة في طيَّات الزمن، وأدركتُ أنَّ الولاء لمن يستحقُّه هو أثمن، وأنَّ الخيانة هي أقصرُ الطُّرقِ إلى الجحيم، وإلى عذابٍ لا ينتهي».

رفعت مجدولين حاجبها بحذر:

- «وماذا تقصدين بذلك يا سيِّدة وشمة؟

هل تحملين رسالة محدَّدة، أم تستمتعين بالتحدُّث بالألغاز؟»

- «الملكُ يقدِّرُ الولاء كثيرًا، ويكرهُ الخيانة كرهًا أبديًّا، وعقوبتُها مؤلمةٌ بلا حدود».

قالت السيِّدة وشمة وهي تشدِّدُ على كلمة الملك بنبرةٍ ذات مغزًى ثم تقدَّمت قليلًا، وعيناها تلمعان ببريقٍ أحمر خافت، كأنَّهُ انعكاسٌ لجمرةٍ بعيدة:

- «وهو يعرفُ كلَّ ما يحدث مع شبيهة السيِّدة ذهبه، يعرُف عن الأصدقاءِ الجُدُد الذين يكثرون السُّؤال، وينبشون قبُورَ الماضِي، ويحاولون إيقاظَ لعناتٍ كان يجبُ أن تبقى نائمة. يعرفُ عن الأماكنِ التي يزورُونها، وعن الخبراءِ الذين يستَشِيرُونَهم، والمخطوطات التي يقلِّبُون صفحاتِها بحثًا عن أسرارٍ قد تكونُ مفتاحَ هلاكهم».

شعرت مجدولين بالدم يتجمَّدُ في عروقِها، وبالقلادةِ على عنقها وقد بدأت تبرُد حتَّى كادت تصبحُ قطعةَ جليدٍ تلتصقُ بجلدها.

كانت الرسالةُ واضحةً، شرهوت يعرفُ عن الدكتور رضوان، وعن بحثِهما، ويعلمُ أنَّهما تقتربان من كشفِ أسرارِه. حاولت أن تتمسَّك برباطةِ جأشِها، وقالت ببرودٍ مصطنع:

- «أقدِّرُ اهتمامكِ بي يا سيِّدة وشمة، أمَّا حياتي الشخصيَّة، فذلك أمرٌ لا يعنيكِ».

وقفت وشمة ببطء، كأنَّها تمنحُ الخوفَ وقتًا لينمو في قلب مجدولين، ثم مالت برأسِها قليلًا وهمست بابتسامةٍ جانبيَّة:

- «لكن تذكَّري، بعضُ الأبواب إذا فُتِحَت يصعبُ إغلاقُها، وبعض الأسرارِ إذا كُشِفَت تحرِقُ من يلمسُها، وبعض الأصدقاء ليسوا كما تعتقدين...

فهم مجرَّدُ بيادقَ في لعبةٍ أكبر منهم، فلا تظنِّي للحظة أنَّهم قادرون على تغيير مصيرك».

ثم خرجت كما دخلت، بخطواتٍ هادئة، تاركةً وراءها هواءً ثقيلًا وإحساسًا يخنقُ الصَّدر، كأنَّ شبكة شرهوت تضيقُ أكثر، وأنَّ سيِّد الكوابيس نفسه يحسب خطواتها بدقَّة».

ذهبه والبوَّابة التي تبتلعُ الضوء ..

في تلك الليلة، وبعد زيارة السيَّدة وشمة وما حملته من تهديدٍ مُبطَّن، كانت مجدولين تتوقَّعُ كابوسًا عنيفًا، عقابًا لها من شرهوت على زياراتِها المتكرِّرة للدكتور رضوان، وعلى فضولها الجريء في تقليبِ أوراقِه القديمة ومحاولة كشفِ أسرارِه.

لكن ما رأته في منامها لم يكن كابوسًا، بل إشارةً غامضة مغلَّفة بالحزن والنور، مختلفة عن كلِّ ما سبق، مقلقة ومخيفة ومفعمة بشيءٍ يشبهُ الجمال الأخَّاذ.

وجدت نفسها واقفةً على شاطئٍ رمليٍّ أسود كالفحم، كأنَّه بقايا رماد براكين خمدت منذُ فجرِ الخلق. أمامها بحرٌ غريبٌ أزرق داكن يكادُ يتحوَّلُ إلى الأسود، تتكسَّرُ أمواجه عند قدميها بلونٍ فضِّيٍّ لامع، كدموع حوريَّة تبكي على حبٍّ ضائعٍ أو قدرٍ لا مفرَّ منه.

كانت السَّماءُ فوقها مختلفةً، مليئةً بنجومٍ متوهِّجة تتشكَّلُ بصورة خرائطَ فلكيَّة معقَّدة وغريبة، أشبهَ برموزٍ أو عيونٍ تراقبُها من بعيد. لم يكن هناك أيُّ أثرٍ لوادي شرهوت الكرزي، ولا لهيئته المرعبة، بل كان المكانُ يشعُّ سكونًا مهيبًا، وجمالًا باردًا ومخيفًا في آنٍ واحد، كأنَّه حافَّة الكون ذاته. وبينما كانت تتوقَّعُ ظهور شرهوت أو أحد تابعيه المخيفين، خرجت امرأةٌ من بين الأمواج المتلاطمة، كأنَّها ولدت في قلبِ عاصفةٍ هوجاء.

كانت طويلةً بشكل مهيب، ترتدي ثوبًا منسوجًا من خيوط القمر والمرجان الأحمر الدَّاكن، يلتصقُ بجسدِها الرَّشيق كأنَّهُ جزءٌ منه، ويتطايرُ ذلك الثَّوب مع نسيمِ البحرِ البارد الذي رافق حضورَها القمري. أمَّا شعرُها الطويل الذي كان بلونٍ أغمق بكثير من الكرز الذي يطاردُها، فقد بدا أقرب إلى لون الياقوت الأحمر الدَّاكن، أو لون النبيذ العتيق الذي لم يُفتح منذ قرون، ينسدلُ على كتفيها وظهرِها كشلَّالٍ من الحُمَمِ البُركانيَّة الغاضبة. بينما

تتسابقُ في السَّماء آلافُ الشهبِ الناريَّة، للوصول إلى خُصلاتِ شعرها الناري.

لم يكن وجهِها واضحَ الملامح تمامًا، سوى عينيها اللَّتين انبثقَ منهما حزنٌ أعمقُ من البحر الذي خرجت منه. عيونٌ حادَّة تتداخلُ فيها زرقةُ البحر مع سواد الليل، كأنَّها نوافذ مفتوحةٌ على عوالمَ خفيَّة، تنبضُ بجمالٍ غامض، فتبدو كلُّ عينٍ بوابةً لأسرارٍ لا يمكنُ النطق بها. تحملُ في أعماقِها كلَّ أسرارِ المحيطات وغضبها. هذه هي ذهبه الحقيقيَّة كما وصفتها المخطوطات القديمة التي قرأت مجدولين -في مخطوطات الدكتور رضوان- أنَّها سيِّدة التيَّارات والدوَّامات البحريَّة وحارسة البوابة.

لم تنطق ذهبه بأيِّ كلمة، بل رفعت يدها ببطء، التي بدت وكأنَّها مخلوقة من لؤلؤٍ مصقول أو من جليدٍ أبدي، وأشارت إلى قلادةٍ متوهِّجة على الشَّاطئ الرملي، تختلفُ تمامًا عن تلك التي تلبسها مجدولين أو التي وصفتها زينة بأنَّها «المفتاح».

كانت تلك قلادة ذهبه الأصليَّة، كأنَّها مصنوعةٌ من حجرٍ نيزكيٍّ نادرٍ سقطَ من عوالمَ بعيدة، مرصَّعة بحجر ياقوتٍ أحمر كبير في مركزها، يشعُّ بضوءٍ أبيض بارد، كأنَّهُ قلبُ نجمٍ متوهِّج، أو عين تراقب كل شيء.

أشارت ذهبه بيدها الأخرى نحو الأفق البعيد، حيث تتشكَّلُ عاصفةٌ رعديَّة هائلة فوق البحر، وقد لمحت مجدولين في قلب العاصفة بوَّابة عملاقة، كدوامة مظلمة تمتصُّ النُّجوم من حولها، وتصدرُ صوتاً كأنين الكون نفسه. أدركت أنَّ ذهبه تحاولُ إيصالَ رسالةٍ إليها، تحملُ تحذيرًا أو إرشادًا، أو تطلبُ المساعدة.

لكن قبل أن تتمكَّن من فهم المزيد، أو طرح أي سؤال على هذا الكيان النوراني الغامض الذي بدا أنَّهُ يحمل مفتاح خلاصها أو هلاكها، بدأت صورة ذهبه تتلاشى تدريجيًّا، لتبتلعها الأمواج المتلاطمة مرَّةً أخرى، كحلم ساحر

ومخيفٌ في آنٍ واحد، أو سرابٌ ينبثقُ ويختفي في صحراء المجهول، تاركًا وراءَه سلسلةً من الأسئلة والألغاز التي لا تنتهي.

استيقظت مجدولين وقلبُها يخفقُ بعنف، وصورة ذهبه بجبروتها الحزين والغامض، وتلك البوَّابة المرعبة لا تزالُ عالقةً في ذهنها كختمٍ أزليٍّ لا يُمحى.

لم تكن ذهبه مجرَّد ضحيَّة أو حبيبة مفقودة ينتظرُ شرهوت عودتها بفارغِ الصَّبر، فقد كانت كيانًا قويًّا وربَّما مفتاحًا آخرَ في هذا اللُّغز المعقَّد الذي يزدادُ تشابكًا وغموضًا يومًا بعد يوم.

وربَّما كانت هي الأخرى سجينةً في عالمٍ آخر، تنتظرُ من يحرِّرُها من لعنةٍ أبديَّة، أو أنَّها تحمي العوالم من فتح تلك البوَّابة المشؤومة التي قد تبتلعُ كلَّ شيء.

وهنا الختم يقول: الوقت ينفد، وبابُ عالم شرهوت أوشك أن يُفتح

وأنا وحدي من يقرِّر:

هل أغلقه قبل فوات الأوان؟

أم أستسلم وأسقطُ فيهِ إلى الأبد...

الختم الكرزي

الفصل السادس:
مفاتيحُ العبور والفخ الأخير..

الوعاء وصدى الحارسة ..

في اليوم التالي، اجتمعت مجدولين وأنين مع الدكتور رضوان في مكتبته التي بدت مشحونةً بصمتٍ ثقيلٍ من الترقُّب والقلق، كأنَّهم أطبَّاءُ على أعتاب غرفة عمليَّات لإجراء جراحةٍ محفوفةٍ بالمخاطر على مريضٍ ميئوسٍ من شفائه، أو جنودٌ على وشك خوضِ معركةٍ فاصلة ضد عدوٍّ لا يُقهر.

روت له تفاصيل زيارة السيِّدة وشمة المقلقة، والتهديد المبطَّن الذي حملته كلماتُها، والتحذير الذي وجَّهتهُ بشأن الأصدقاء والأسرار التي يجبُ عدم كشفها، ثم وصفت ما استطاعت أن تتذكَّرهُ من رؤيا «ذهبه» الحقيقيَّة وقلادتِها الأصليَّة التي كانت تتوهَّجُ على الشَّاطئ الرملي، وتلك البوَّابة المرعبة التي تشكَّلت في قلب العاصفة.

كان الدكتور رضوان يقلِّبُ صفحات مخطوطٍ قديم يتحدَّثُ عن ملوك الجن وحرَّاس البحر، ويقارنُ بين الرُّسوم والرُّموز، وبين وصف مجدولين الدقيق، وعلى جبينِه تتعمَّقُ التجاعيد وهو يُفكِّر ويحلِّل ليربط بين تلك الخيوط المتناثرة التي تزدادُ تعقيدًا مع كلِّ كشفٍ جديد، ثم قال بعد صمتٍ ثقيل:

- «الأمور تتَّضح وتتعقَّد في الوقت نفسه، وبسرعةٍ أكبر من المتوقَّع. السيِّدة وشمة عين شرهوت وأذنه في عالمنا دون شك، ورسالتُها واضحة: إنَّه يراقبُنا، ويعرفُ تحرُّكاتنا، ويحاولُ أن يثنينا عن المضيّ في هذا الطريق، أو يستدرجَنا إليه أكثر، لنصبحَ جزءًا من لعبته».

ثم نظر إلى مجدولين بعينين يختلطُ فيهما التقدير والقلق:

- «أمَّا رؤيتك لذهبه الحقيقيَّة... فهي تؤكِّدُ أنَّها ليست مجرَّد زوجة لشرهوت، وأنَّ القلادة النحاسيَّة على عنقك ليست إلا صدًى أو نسخةً باهتة من قلادتِها الأصليَّة، وربَّما وعاءٌ لجزءٍ من روحها. ظهورُها بهذا الشَّكل، وبهذا الحزن، يعني أنَّها ما زالت موجودة، وربَّما تحاولُ مساعدتكِ أو تحذيركِ».

أخرج الدكتور رضوان من المخطوط رسومًا نادرة تصفُ «سيِّدات البحر» أو «حارسات الأعماق»، يمتلكْنَ جواهر مركزيَّة تمنحهن سلطانًا على التيَّارات البحريَّة والكنوز المائيَّة، ويعقدْنَ عهودًا مع ملوك الجنِّ، لحماية بوَّابات العوالم، أو لحفظ توازن القوى.

تساءلت أنين:

- «إذا كانت قلادةُ مجدولين هي مجرَّدَ صدًى لقوَّة ذهبه، فأين القلادة الأصليَّة التي رأتها في الرؤيا؟ ولماذا يريدُ شرهوت قلادة جدِّ زينة السوداء إذا كان يبحثُ عن ذهبه أو قوَّتها؟ أليس وجودُ مجدولين كافِيًا بالنِّسبة إليه؟»

أجاب رضوان وهو يفرُكُ جبهته:

- «أخشى أنَّ القلادة الأصليَّة، قد فُقِدت أو أُخفيت، وربَّما دمرتها ذهبه نفسها لمنع شرهوت من استغلالِها، وقد يكون هدفه الحقيقي امتلاك القلادة السوداء، ليفتحَ البوَّابة التي رأيتِها والتي قد تكون حارستُها هي ذهبه».

رفعت مجدولين عينيها وسألت بصوتٍ مرتجف:

- «لماذا أنا؟ لماذا اختارني من بين كلِّ نساء الأرض لأكونَ جزءًا من لعبته؟»

- «في الموروث القديم، الشبيهات لا يملكْنَ الملامحَ فقط، بل جزءًا من الرُّوح أو صدى الطاقة.

وهو يراكِ الوعاء المثالي لاستعادة ما فقده، أو الأداة الوحيدة لتفعيل القلادة السوداء لفتح تلك البوابة. وقد تكونين أيضًا الأملَ الوحيد لإغلاقِها إذا فهمتِ سرَّ ذهبه والقلائد، وسيطرتِ على القوَّة الكامنةِ داخلَكِ».

حدَّقت مجدولين في يديها المرتجفتين، كأنَّ كلَّ نبضة في صدرها تترجمُ إلى ارتعاشةٍ في عروقها شعرت أنَّ المجهول يلتفُّ حولها كوحشٍ يتربَّصُ في الظَّلام.

ومع هذا الرُّعب الذي أخذ يطبقُ على أنفاسها، بدأ شعورٌ جديدٌ يتسلّلُ إلى أعماقها. إحساسٌ غريبٌ بالقوَّة لم تعرفه من قبل، يقول لها إنَّ ضعفها مجرَّد قشرةٍ رقيقة، وقلبُها قادرٌ على مواجهة القادم. شعورٌ بأنَّ مسؤوليَّة إيقاف ما سيأتي، قبل أن يبتلع الظلامُ كلَّ شيء، تقعُ بالكامل على عاتقها، وأنَّ لحظة المواجهة قريبة، صاخبة ومخيفة، لكنَّها حتميَّة.

وجهان للمعاناة في مرآةٍ واحدة ..

وسط العواصف التي كانت تهدِّد باقتلاع توازن مجدولين من جذوره، وتحويل ليلِها إلى كابوسٍ بلا نهاية، ونهارِها إلى ترقُّبٍ مسمومٍ بانتظار الأسوأ.

تشبَّثت بقشَّة مهنتِها كأنَّها آخرُ خيطٍ يربطُها بالواقع. لقد غدت مهنتها حصنًا أخيرًا للعقلانيَّة وسط عالمٍ ينهارُ حولها، تتراقصُ فيه أشباحُ الجنون والماورائيَّات، كأنَّها مهرجان للموت.

في ذلك الصباح، دخل شابٌّ في أواخر العشرينيات إلى عيادتها. لم يكن كالسيِّدة وشمة، ذلك الطيف المهيب الذي يخلِّف وراءَه صقيعًا خفيًّا وتهديداتٍ تندسُّ بين الكلمات، بل بدا وجهُه إنسانيًّا مرهقًا، يحملُ آثار معاركَ داخليَّة لا تُرى، حفرت ندوبها على ملامحه قبل أن يحين أوانها.

كان خالد جنديًّا سابقًا، يعاني من اضطراب ما بعد الصدمة، مثقلًا بذكريات أهوال مناطق النزاع الملتهبة، حيث لا تهدأ نيرانُ الموت ولا تتوقَّفُ صرخاتُ المعذَّبين. كوابيسُ ليليَّة لا ترحم تقتحمُ نومه، تتخلَّلُها انفجاراتٌ تهزُّ روحَهُ قبل جسدِهِ، وتصرخُ في رأسه بأسماء رفاقِه الذين سقطوا واحدًا تلو الآخر، بينما تطاردُهُ ذكريات النَّهار كأشباحٍ تأبى الرحيل.

جلس أمامها، يتهدَّجُ صوتُه وهو يصفُ كيف صار يرى وجوهَ الموتى تتجوَّلُ في أحياء المدينة، وكيف يسمعُ دويَّ القذائِفِ في ضجيج الحياة اليوميَّة، ويشمُّ رائحة البارود في أماكن لم تشهد أيَّ معركة. حدَّثها عن خوفِه الدَّائم، وشعورِه بأنَّ جزءًا من روحِهِ ما زالَ محاصرًا هناك، بين الرُّكام والدَّمار الذي تركه خلفَه.

كانت مجدولين تنصتُ بانتباه، رغم أنَّ عقلَها كان مشغولًا بصورة ذهبه الحقيقيَّة، وبالبوَّابة الدَّاكنة والقلائد التي تحملُ مصيرها. ومع ذلك، شعرت بمعاناته تتسرَّبُ إلى أعماقها، كأنَّهما يخوضان المعركة نفسها، يطارده شبحُ الحرب، ويطاردُها ملك الجن، وكلاهما عالقٌ في معركةٍ اختيرت لهما قسرًا، يحاولان الخلاص منها بشتّى الطرق.

قالت بصوتٍ هادئ:

- «ما تمرُّ به ردُّ فعلٍ طبيعيٌّ لصدماتك، العقلُ البشري يدفنُ الألمَ في زاويةٍ مظلمة أحيانًا، لكنَّه يبقى هناك، يعود لاحقًا في هيئة كوابيس أو قلق لا تفسيرَ له».

ثم شرحت له أساليب العلاج بالتعرُّض المطوَّل الذي يواجه المرءُ فيه ذكرياته المؤلمة تدريجيًّا، حتى تفقدَ حدَّتها وتصبح أحداثًا عاديَّة، وشرحت له أيضًا تقنيَّات إعادة المعالجة وتكييف حركة العين، تلك الأدوات التي تخفِّفُ من شدَّة المشاعر السلبيَّة المرتبطة بالصدمة، كأنَّها صفحات في ألبوم ذكريات قديم يمكن تصفُّحه دون أن ينهار المرءُ تحت وطأته.

رأت بصيص أملٍ يلمعُ في عينيه المتعبتين، فتسلَّل إليها شعورٌ بالرِّضا المهني، وبأنَّها ما تزالُ قادرةً على شفاء الآخرين. لكن في أعماقها، كان سؤالٌ مرير يلحُّ عليها:

إذا كانت تستطيعُ أن تساعِدَ من تحطِّمُه الحروب، فلماذا تعجزُ عن إنقاذِ نفسِها من لعنة شرهوت، ذلك الكيان الذي لا يخضعُ للعلم والمنطق، والذي يعيدُ صياغة الواقع ليخضعه لقوانينه الشيطانية، وهل يمكن لعقلٍ بشريٍّ أن يواجِهَ قوَّةً لا تُرى ولا تُقاس، تمسِكُ بمفاتيح العبور إلى الهاوية؟

على رقعة شرهوت ..

لم تكن مكتبة الدكتور رضوان مجرَّد غرفة في بيتٍ قديم، بل كانت أشبه بمغارةٍ من أسرار القرون الغابرة. جدرانُها مكتظَّة بالكتب التي تصطفُّ كجنودٍ صامتين، تحملُ أغلفتها غبارَ السنين ورائِحةَ ورقٍ التهَمتهُ شمسُ الزَّمن.

وفي زوايا المكان، شموعٌ ذاب شمعُها على حواملِها، تاركةً خطوطًا ملتوية كدموعٍ متحجِّرة، يمتدُّ ضوؤُها الخافت ليُلقي ظلالًا متراقصة على الجدران، تضفي على الغرفة جوًّا كابوسيًّا يفيضُ بالصَّمت المريب.

جلست مجدولين على المقعد الخشبيِّ أمام الطَّاولة، وإلى جانِبها أنين، شاحبةَ الوجه كما لم تُرَ من قبل، بينما انشغلَ الدكتور رضوان بتقليب مخطوطٍ قديم، أوراقه الصفراء تتآكلُ أطرافُها كأنَّها تتنفَّسُ آخر أنفاسِها، لكنَّه تعاملَ معها بحذرٍ شديد، كأرواح هشة يخشى أن ينكسر سرُّها بين أصابعه. ثم قال بصوتٍ هادئٍ مشحونٍ بثقلِ الكلمات:

- «شرهوت يا دكتورة ليس مجرَّد كائنٍ يندفعُ بغريزته، إنَّه لاعبٌ بارع، يخطِّطُ بدقَّة، ويضعُ خصومَهُ على رقعته، ثم يراقبُهم وهم يظنون أنَّهم أحرار، بينما هم في الحقيقة بيادقُ تسيرُ كما يريد».

ارتجفت أنين عند سماع الكلمة الأخيرة، وابتلعت ريقها بصعوبة، بينما حاولت مجدولين إخفاء ارتعاشة يديها تحت الطاولة، كأنَّها تحاولُ تمالُك ما تهتزُّ به أعماقُها.

كل كلمةٍ نطقها الدكتور رضوان كانت توقدُ نارًا خفيَّة من القلق في قلبها، كأنَّها تسمعُ إعلانًا عن هزيمةٍ قادمة لا مفرَّ منها. أمَّا الصمت الذي أعقب حديثه، فلم يكن مجرَّد فراغ؛ بل كان صمتًا ثقيلًا، يضغطُ على الأجواء، يثقلُ الصَّدر، ويحملُ معه وعدًا غير مرئيٍّ بالخطر القادم.

شعرت مجدولين بالهواء يتغيَّر فجأة، كأنَّ الحياة نفسها غادرت الغرفة. اهتزَّت الشُّموع من تلقاء نفسها، بينما بقيت الستائر ساكنة، لكنَّ ظلًّا غريبًا عبَرَ الحائط للحظة ثم تبخَّرَ في الهواء.

وفجأة، اخترق صوتٌ عميق صمت المكان، انبثق من الجدران والأرض والسقف في آنٍ معًا،

كأنَّ الغرفة كلَّها تحوَّلت إلى فمٍ واحد ينطقُ بالشَّر، وقد سبق الصوت ضحكةٌ قصيرةٌ وباردة، ثم قال مهدِّدًا:

- «أتظنون أنَّكم خارج رقعتي حقًّا؟»

تجمَّدت الدماء في عروق مجدولين، وأمسكت أنين بذراعها بقوَّة، حتَّى كادت تُحدِثُ ألمًا محسوسًا، فيما بدا رضوان مذهولًا، وكأنَّ ما يسمعُه يفوقُ كلَّ علمِه ومعرفته.

شحب وجهُه، وانكمشَ في مكانه عاجزًا عن مواجهة الموقف، بينما واصل الصوت بنبرةٍ غليظةٍ وعميقة، يخترقُ العظام قبل الآذان:

- «كلُّ ما تقولونه هنا، حتَّى هذه اللحظة البائسة التي أضعكم فيها تسيرُ كما أريد، وأنا الملكُ الوحيد على هذه الرُّقعة».

عندها بدأت القلادة النحاسيَّة المعلَّقة على عنقِ مجدولين تظهر وترتجف بحرارةٍ حارقة، فصرخت بصوتٍ مكتوم، وحاولت أن تنتزعها، لكنَّ أصابعها ارتدَّت كأنَّها لامست جمرةً ملتهبة.

ثم بدأ الصوت يتردَّدُ في رأسِها وحدها:

- «الطريقُ الذي تسيرين فيه الآن، أنا من اختاره لك يا ذهبه، وستفعلين ما أريد وأخطِّط له».

شعرت مجدولين أنَّ الكتب على الرفوف تميلُ نحوها قليلًا، كأنَّها تتهيَّأُ للانقضاض عليها، والمخطوطات فوق الطاولة تتحرَّك ببطء وتزحفُ نحوها

بأصابع خفيَّة، شهقت أنين:

- «مجدولين، هل هذا صوت شرهوت؟»

لكنَّ صوتها كان باهتًا، كأنَّه جاء من خلفِ زجاجٍ كثيف، وفي لحظة بدت الظِّلالُ على الحائط كأنَّها تبتسم، ثم تلاشت واختفى الصوتُ تمامًا، تاركاً وراءَهُ صمتًا خانقًا، يُطبِقُ على المكان كغطاءٍ من رماد. جلس الجميع متجمِّدين في أماكنهم، لا أحد يجرُؤ على النطق، وبعد دقائق طويلة من الصمت انقضت كالساعات، رفع الدكتور رضوان رأسَهُ أخيرًا، وعيناه مشدوهتان من الخوف:

- «لقد أيقنّا الآن، شرهوت يراقبنا، ويسبقنا بخطوةٍ على رقعته».

لكن مجدولين كانت تعرفُ أنَّ البيت الحجري والكوابيس والرسائل المبطَّنة ليست مجرَّد كوابيس عابرة، إنَّها فخٌّ محكمٌ أعدَّ لها لتقعَ فيه.

ومع ذلك، ولأوَّل مرَّة، لم يكن الخوفُ هو ما يسيطرُ عليها. وضعت كفَّيها على الطَّاولة بثبات، وأسندت ظهرها قليلًا، وشعرت بالقلادة على عنقها تهدأ، كأنَّها تنصِتُ لعزيمتها، ثم رفعت عينيها إلى الزاوية الباهتة من الغرفة، وقالت بهدوء:

- «قد تكون الرُّقعةُ رقعتك أيُّها اللَّاعب الماكر، لكنَّ القرار لي، أنا من يقرِّرُ متى أتحرَّك، وأين أذهب، وأيَّ معركةٍ أخوض، ولن أكون بيدقًا في لعبة أحد، حتَّى لو كان اسمه شرهوت».

ساد صمتٌ غريبٌ، لكنَّه لم يكن مريبًا هذه المرَّة، بل كان صمتًا يشبهُ بزوغ فجرٍ جديد بعد ظلامٍ طويل. حدَّقت أنين في وجه صديقتها بدهشة، ومدَّت يدها لتمسِك بكفِّها، وقالت وهي ترتجف:

- «هذه مجدولين التي أعرفها، حرَّة في اختيارها، ترفضُ الخضوع للظروف».

أمَّا الدكتور رضوان، فقد نظر إليها نظرةً طويلة، ثم قال:

- «لعلَّ هذا هو السبب في اختيار ذهبه لكِ لتحتضني جزءًا من روحُها، فأنت الوحيدة القادرة على تغيير قواعد اللعبة».

وفي تلك اللحظة، تراجعت الظلال تمامًا، وتموَّج نور الشموع كأنَّ شيئًا انسحب من المكان، استعدادًا لصدامٍ قادم.

بين إغواء الظِّلال وتهديد النَّار ..

في تلك الليلة، عادت مجدولين إلى بيتها مرهقةً بعد معركةٍ غير مرئيَّة مع الظلال في مكتبة الدكتور رضوان، وبدأ عقلها يتهيَّأ لمواجهة هذا التحدِّي الجديد الذي لا تملكُ ترف الخلاص منه دون معركة، فقد شعرت أنَّ الطريق نحو المواجهة صار قدرًا مكتوبًا على جبينها، إلا أنَّ الحقيقة التي باغتتها في بيتها لاحقًا، ستجعلُ القرار ينغرسُ في روحِها كطعنةٍ لا رجعة بعدها.

رأت في كابوسِها الذي يبدأُ دائمًا بمجرَّد أن تغمض عينيها، أنَّ البيت الحجري الذي تعرفُه من الخارج، بيتٌ قديمٌ موشَّحٌ بالصمت، أحجارُه سوداء متشقِّقة، تحيطُ به أشجار الحماط التي تحرس المكان كالجنود. وعندما أزاحت تلك الصخرة البيضاء الملساء عن مدخل البوَّابة، تحوَّل البيت أمامها إلى صرحٍ مهيب، يمتدُّ البهو فيه كقلب قصرٍ أسطوري، أعمدتُه تشعُّ بالنبضِ كعروقٍ حيَّة، وسقفُه اللَّامِعُ يقطرُ غموضًا باردًا، وفي صدر القاعة انتصب العرشُ، يسطعُ كأنَّهُ ينتظرُها منذ قرونٍ بعيدة، ثم ظهر شرهوت.

لم يظهر في هيئة ظلٍّ كما في كوابيسها السابقة، بل تجسَّد أمامها في شكل كيانٍ يمزجُ الرَّهبة بالجمال المخيف. بدا وجهُه منحوتًا من رخام الليل ومصقولًا بماء النار، وعيناه بحيرتان متقابلتان، تتوهَّجان كالزمرُّد أو كالجمر الحي، وتشعَّان قوَّةً لا يمكنُ مقاومتُها. وشعره المنساب على كتفه كتاجٍ من الليل الأسود، يلمعُ ببريقٍ أزرق غامض، كأنَّ الظَّلام نفسَهُ قد اكتسى بالجمال.

كان صوتُه كموسيقى تتسلَّلُ إلى القلب بلا استئذان، يغوي الروح قبل الأذن.

شعرت مجدولين للحظة أنَّ جسدَها يخونُها، فأطرافها ارتجفت، وشعرها بدا كأنَّهُ يطولُ ويتموَّجُ بوميضٍ غامض، وبشرتُها توهَّجت برونقٍ لم تعرفه من قبل، كأنَّها صارت أجمل وأقوى.

ملكةٌ تولدُ من جديد تحت أنظاره، وإحساسٌ لذيذٌ بالسمو أغراها بالاستسلام لخطوته التالية، لكن تذكَّرت فجأة دعاءها الذي لطالما أنقذها، وتمتمت به

بصوتٍ خافت، كصرخة مقاومة تخترقُ تأثيره الساحر:

- «بسم الله على قلبي حتَّى يسكُنَ ويطمئن..».

فانزاحت الغشاوة عن عينيها كما يُزاحُ ستارٌ كثيفٌ عن نافذة مظلمة. اهتزَّ قلبُها بعنف، وانهار السِّحر من حولِها ورأت الحقيقة. لم يكن ما يقدِّمُه سوى قناعٍ من بريقٍ ساحرٍ كاذب، يخفي وحشًا يتعطَّشُ لروحِها. غَضِبَ شرهوت وتبدَّل صوتُه إلى زمجرة عاتية كصخورٍ تتهاوى من سفح جبل، وفي لحظةٍ خاطفة، لم تعد مجدولين في البهو الفخم، بل في بيتها، وقفت مذهولةً عند باب غرفة طفليها، لتجده يقفُ أمامهما، بكامل هيئته الجميلة والمخيفة، بسط كفَّهُ فوق رأسيهما كغمامةٍ سوداء تستعدُّ أن تمطرَ بالشَّر. ابتسم شرهوت ببرودٍ قاتل، وبحركةٍ واحدة رسم دائرةً من النَّار حول سريرهما، فارتفعت ألسنةُ اللَّهب كأفاعٍ حمراء تتلوَّى، تقتربُ وتبتعدُ كأنَّها تتذوَّقُ الفريسة قبل الانقضاض، قال بصوتٍ أجوف يملأُ المكان:

- «إذا لم تختاري أن تكوني لي، هنا في عالمي المحترق، فسأحرقُ قلبَكِ بيدي، مصيرهُما بين يديكِ».

تجمَّدت أنفاسُ مجدولين، وارتجفت شفتاها، وحاولت أن تصرخ وتدفعَه بعيدًا، لكنَّها كبحت نفسها، لأنَّ أيَّ حركةٍ طائشة قد تجعلُ النَّار تأكلُ طفليها. ابتلعت خوفها، وخفَّفت من حدَّة رفضِها، وأومأت كأنَّها ستستجيبُ لأوامره لتكسب وقتًا إضافيًّا، وأقسمت في قلبها:

- «لن يُخضعَنِي بالخوف، المعركة الحقيقيَّة يجبُ أن تكونَ في عقر داره، لا هنا عند فلذات كبدي».

ثم تلاشى كما جاء، تاركًا هواءً محمَّلًا برائحة الكبريت.

استيقظت من كابوسِها وهي تلهثُ، كأنَّ أنفاسَها تُطارِدُ ظلًّا هاربًا من نومها، فاندفعت نحو غرفة طفليها، وانحنت فوق سريريهما تطبعُ على جبين نايف وياسمين قبلاتٍ مرتعشة.

كانا غارقين في نومٍ وادع، بوجوهٍ ملائكيَّة بريئة، كأنَّ شيئًا لم يكن.

لكن حين رفعت الغطاء عن نايف، اختنق صدرُها بشهقةٍ جمَّدت الدم في عروقها. كان هناك دائرة سوداء على وسادته، أثرُ حرقٍ غامض كوسمٍ لعين، انبعثت منه رائحة رمادٍ خانقة، كأنَّ النار عبرت لوهلة من كوابيسها إلى الواقع.

مدّت يدها تتحسَّسُ الوسادة، فبانت على كفَّيها خطوطٌ حمراء رفيعة، كأنَّها تذكِّرُها أنَّ الشَّرَّ أقربُ مما تتخيَّل، فتراجعت مذعورة، ودموعُها تنسابُ بلا صوت.

لم يعد ما يجري وهمًا أو كابوسًا، فقد ترك شرهوت خَتمه عليها وعلى طفليها، أثرٌ لا يزول، يذكِّرُها أنَّ الوقت ينفد، والمعركة الحاسمة قادمة.

أغمضت عينيها، تتنفَّس بصوتٍ مرتجف، قبل أن تهمس:

- «المعركة الحقيقيَّة ستكون في عقر داره، هناك سينكسر هذا الجحيم».

أدركتُ أنّ رحلتي لم تعد تخصُّني وحدي ..

بل أصبحت قدرًا يلتفُّ حول من أحب..

الختم الكرزي

الفصل السابع:
الرحلة إلى المجهول ..

زهرة الوداع وبداية الانكشاف ..

دخلت مجدولين عيادتها في صباحٍ رماديٍّ شاحب، كأنَّ النَّهار نفسه في صراعٍ مع الظِّلال المظلمة. بدا الضوء المتسرِّبُ من شقوق النافذة ضعيفًا، يتكسَّرُ فوق المكتب كزجاجٍ قديم ويزيدُ الجو كآبةً وصمتًا.

وضعت حقيبتها على الطاولة بحركةٍ آليَّة، ثم أسلمت جسدها إلى المقعد ببطء، كأنَّ كتفيها مثقلان بحملٍ لا يراه أحد. مدَّت يدها ورفعت معطفها الأبيض عن ساعدها، فانكشفت على بشرتها ندوبٌ حمراء رفيعة كالجرح الطازج، ترسُمُ خطوطًا مبهمة، أقرب إلى لغةٍ سريَّة لا تخصُّ هذا العالم، كأنَّ جسدها صار ورقةً تُسجَّلُ عليها رسائلُ الليل.

مرَّرت أصابعها على الندوب بتردُّد، فارتجف جسدُها برعشةٍ لاذعة، كأنَّها لمست بابًا خفيًّا يطلُّ على ظلمةٍ أخرى. أيقنت أنَّها ليست مجرَّد آثارٍ عابرة، بل بصمةٌ حيَّة لكابوس الليل الذي أصبح يلاحقُها حتَّى بعد استيقاظها.

تذكَّرت بوضوح ظلَّ شرهوت وهو يحيطُ بطفليها بطوقٍ من نار، وكيف تركَ على وسادَةِ نايف أثرًا حارقًا يشبِهُ الخَتم. شعرت فجأة بوخزٍ حادٍّ في صدرها، فمدَّت يدها إلى عنُقِها، حيث تستقرُّ القلادة الخفيَّة المغروسة في جلدها، لكنَّها اليوم أحسَّت بشيءٍ مختلف، بروزٌ طفيفٌ تحت بشرتها، كأنَّ المعدن بدأ يتقدَّمُ نحو السطح، مُتهيِّئًا ليشُقَّ طريقَهُ إلى النور.

ارتجف قلبُها وأدركت في أعماقِها أنَّ القلادة لا تتحرَّكُ عبثًا.

فقد بدا أنَّها تستعدُّ للظهور أمام الجميع، كأنَّ ساعة انكشاف الأسرار تقترب. ضغطت بكفَّيها على عنُقِها تحاولُ كبح ذلك النَّبض الغامض، لكن دون جدوى، فالمعدنُ كان مزروعًا في جسدِها وروحِها معًا، يذكِّرُها بأنَّها ليست وحدها، وأنَّ الطريق الذي سلكتهُ لا عودة منه.

وبينما كانت تحاولُ التقاط أنفاسها، واستعادة توازنها وسط صمتٍ ثقيلٍ كالجدران، جاء صوت طرقٍ خفيف على باب العيادة، متفاوت النغمة، لا

يشبهُ الطّرْق المعتاد من سكرتيرتها وعد، أو المرضى والزوار المعتادين.

كان بطيئًا، مدروسًا، كأنَّ اليد خلف الباب تريدُ الإعلان عن نفسها قبل أن تتجلَّى. ارتجف قلبُها فجأة، وشعرت ببرودةٍ تسري في أطرافِها، فرفعت رأسها بعينين تتفحَّصان الظِّل وراء الباب،

وبصوتٍ متقطِّعٍ حذر، قالت:

- «تفضّل..».

تحرَّك مقبضُ الباب ببطءٍ يثيرُ القشعريرة، وانفتح باتِّساعٍ ضيِّق يكفي لمرور ظلٍّ متثاقل، ودخلت السيِّدة وشمة. تجمَّدت مجدولين في مكانها، واتَّسعت عيناها بدهشة:

- «أنتِ! كيف دخلت دون موعد؟ ومن سمح لكِ؟»

لكنَّ وشمة لم تُعر سؤالها اهتمامًا، أغلقت الباب خلفها، وسارت بخطواتٍ ثابتة، وجلست بهدوء على الكرسي المقابل لمجدولين. كانت ملامحُها ثابتة، وحضورها الثقيل محاطًا بهالةٍ من الغموض والقلق. مدَّت يدها، ووضعت شيئًا صغيرًا ملفوفًا بقطعة قماش داكنة على سطح المكتب، لم ترفع نظرها عن مجدولين وهي تقولُ بنبرةٍ هادئة:

- «هذه هديَّتُكِ من الملك شرهوت، وردَةُ الكرز السوداء، زهرةٌ من واديه الكرزي».

لم تجرؤ مجدولين على لمسها، بل بقيت تحدِّقُ فيها بعينين متوجِّستين، ثم ابتسمت وشمة ابتسامةً باردة، وأضافت بصوتٍ حاسم:

- «لم يعد يزورني كالسَّابق، لقد أصبحتِ المفضَّلة لديه، يزورُ عيادتكِ يوميًّا، كأنَّها نقطةُ عبورِهِ المفضَّلة، لم يعد ممكنًا تجاهلُ الأمر».

ارتجف قلب مجدولين، وشعرت بالقلادة على عنُقِها تنبضُ مع كلمات وشمة، كأنَّها تُصدِّقها القول وتؤكِّدُ هذه الحقيقة. ثم وقفت وشمة بهدوء، واتَّجهت

نحو الباب وهي تقول:

- «حين تدركين معنى هذه الهدية، ستعرفين أنَّ الوقت قد بدأ».

خرجت تاركةً وراءَها صمتًا أثقل من حضورها، وبقيت مجدولين تحدِّقُ في اللفافة التي تركتها وشمة. تردَّدت لحظةً قبل أن تمدَّ يدها إليها، لكنَّ فضولها تغلَّبَ على خوفِها. أزاحت قطعة القماش الدَّاكنة ببطء، فإذا بها ترى زهرةً لم تقع عينُها على مثلها قط. زهرةُ كرزٍ سوداء، أوراقُها منسوجةٌ من ستائِر الليل، يلمعُ على حوافِّها بريقٌ باهتٌ كالفضَّة، لا تشبهُ زهور الأرض.

شهقت من الذُّهول، ثم أسرعت بلفِّ القماش حولها من جديد، كأنَّها تخشى أن يطالها سحرُها إذا تركت مكشوفة. ثم وضعت الزهرة في درج في مكتبها، نادرًا ما تفتحه.

لم يكد صدى خطوات وشمة يتلاشى في الممر حتَّى ومضت المصابيح لوهلة، ثم انطفأت فجأة، وغرقت العيادة في ظلامٍ دامس يخنقُ الأنفاس. لم تسمع مجدولين إلا نبضات قلبها، تقرعُ على صدرها كطبول الحرب.

ارتفع همسٌ خافتٌ من زوايا الغرفة، بعيدٌ عن لغات البشر، كأنَّ الجدران تتكلَّم. حاولت التحرُّك، لكنَّ قدميها أثقلهما الخوف، وتحوَّلت الأرضُ تحتها إلى رمالٍ متحرِّكة، تسحبُها للأسفل.

وفي عمق الظلام، تشكَّل ظلٌّ طويلٌ في زاوية الغرفة. لم تُفصح ملامِحُه عن أيِّ شيء، لكنَّ مجدولين عرفته كما يُعرفُ الجرح الأوَّل.

كان حضور شرهوت أثقل من أيِّ وصف، اخترقت عيناه المتوهجتان بلون الجمر ظلام الغرفة، كأنَّه يقرأُ أفكارَها قبل أن تراودها. تجمَّدت في مكانها، لكنَّ صوته سبقها، وخرج كزفيرٍ ثقيلٍ يلامسُ العظم، ويملأُ المكان بثقلٍ يضيقُ به صدرُها:

- «أتدرين كم مرَّةً نطقتِ اسمي منذ الليلة الماضية؟»

ارتفعت يدُها دون إرادتها إلى عنقها، حيث القلادة المغروسة في جلدها، وشعرت ببروزها يزداد، كأنَّها تتجاوبُ مع وجودِه وتتهيَّأ للانبعاث. حاولت أن تستجمع قوَّتها، وهمست بصوتٍ متماسِكٍ قدر المستطاع:

- «لن تنال منِّي ما تريد».

فضحك الظلُّ، ضحكةً مكتومة كأنَّها جاءت من بئرٍ عميقة، ثم قال:

- «سأنتظرُ، والانتظارُ يجعلُ الأشياء تميلُ إليَّ، ورائحة طفليكِ قد أيقظت شوقي إليهما».

كاد الهواءُ ينقطعُ من رئتيها، لكنَّ شيئًا من العناد قد هاج في صدرها، فرفعت رأسها بثباتٍ مصطنع، وقالت:

- «طفلاي ليسا لكَ، ولن أسمح لك بأن تزرع الخوف في أحلامهما».

تراجع الظِّل قليلًا، تاركًا وراءَهُ برودةً لزجة تفوحُ برائحة الكبريت المحترق. لم يعد المكان مظلمًا تمامًا، لكنَّه لم يستعد نوره بعد، كأنَّ الغرفة ما تزالُ معلَّقةً بين عالمين.

فجأة، دوَّى طرقٌ عنيفٌ على الباب، تبعه اندفاعٌ سريع، ودخلت وعد ووجهها شاحبٌ كمن رأى شبحًا. كانت أنفاسُها متقطِّعة، وصوتُها يرتجفُ:

- «دكتورة! انطفأت الأنوار فجأة، ثم رأيت ظلًّا غريبًا في الممر، لا يشبهُ ظلَّ البشر».

اقتربت منها بسرعة، ولاحظت يد مجدولين المليئة بالندوب، فشهقت ووضعت كفَّها على كتفها:

- «أخبريني ما الذي حدث؟»

لم تجب مجدولين مباشرة، فقد كانت تحاول استعادة توازنها بعد اختفاء شرهوت المفاجئ، وابتسمت ابتسامةً مزيَّفة، وقالت:

- «اطمئنِّي يا وعد، كلُّ شيءٍ على ما يرام، عودي الآن إلى مكتبك فالهاتف لا يتوقَّف عن الرنين،

عليك أن تتابعي عملك، شكرًا لك».

لكنَّ وعد لم تستجب، وبقيت متسمِّرة مكانها، كأنَّ قلبَها يرفضُ أن يتركَ مجدولين وحيدة في هذه اللحظة العصيبة.

وفجأة، انفتح البابُ على عجل، ودخلت أنين كأنَّ قوَّةً خفيَّة دفعتها لزيارة صديقتها. لم يكن في نيَّتها أن تزورَ العيادة هذا الصباح، لكنَّها منذُ الليلة الماضية لم يغمض لها جفن. إحساسٌ غريب كان ينهشُ قلبَها، كأنَّ مكروهًا أصاب صديقتها، وعندما اقتربت من المكان، داهمها الهواءُ برائحةٍ غريبة ولاذعة، خليطٍ من رمادٍ وكبريت، جعلها تجزمُ أنَّ أمرًا غريبًا يحدثُ هنا.

اندفعت إلى الداخل دون تردُّد، فوقعت عيناها مباشرةً على يد مجدولين الموسومة بالنُّدوب، وعلى ملامح وجهها الشاحب.

ارتعشت شفتاها، ثم قبضت على يدها بصوتٍ مخنوق:

- «متى حدث هذا؟ ولماذا تُخفينه عني ؟»

خفضت مجدولين عينيها، وحاولت أن تجرّد صوتها من الارتعاش:

- «إنَّه أمرٌ عابر، لا تقلقي».

لكنَّ أنين رفعت وجهها بعزم وقالت:

- «عابر؟! هذا جرحٌ في روحِك قبل أن يكونَ في جسدِك، يجب أن نذهبَ إلى الدكتور رضوان اليوم، في هذه اللحظة».

سادت لحظةٌ من الصَّمت الثقيل في الغرفة، ثم رفعت مجدولين رأسها بثبات وقالت:

- «أنا من يقرِّرُ متى أذهب، وأين أذهب، وكيف أواجه، هذه معركتي أنا».

حدَّقت أنين في عينيها طويلًا، ثم قالت:

- «قولي ما تشائين، لكنَّني لن أتركك وحدك، سأكونُ معك مهما كان الطريق مجهول النهاية».

نظرت وعد إليهما بقلقٍ متزايد، ثم قالت بصوتٍ خافت:

- «وأنا أيضًا، لا أستطيعُ أن أبقى بعيدةً عنكِ».

التفتت إليها مجدولين بحزمٍ حنون، ووضعت يدها على كتفها وقالت:

- «يا وعد، أنتِ مكانكِ هنا، العيادة تحتاجكِ لتنظيم أمور المرضى، أريدكِ أن تبقي، لتكوني عيني في هذا المكان».

أطرقت وعد برأسها، لكنَّها لم تتوقَّف عن النَّظر إلى مجدولين، أمَّا أنين فاكتفت بإيماءةٍ جادَّة وهي تتراجعُ نحو الباب. بقيت مجدولين وحدها للحظة، وشعرت بهدوءٍ غريب يتخلَّلهُ صوت صريرٍ خشبيٍّ غامض.

التفتت إلى مكتبها فإذا بالدرج يهتزُّ كأنَّ قلبًا ينبضُ بداخله، مالت نحوه متردِّدة، ومدَّت يدها وفتحت الدرج، فوجدت الزهرة السوداء تنبضُ كأنَّها كائنٌ حي. تتراقصُ أوراقُها، وينبعثُ منها وهجٌ داكن، ويمتزجُ عبيرُها برائحةٍ آسرة. مزيجٍ من العطر والدموع السَّاحرة، كأنَّها الهمسات التي غابت مع شرهوت عادت من جديد.

وضعت مجدولين يدها قرب الزهرة دون أن تلمسها، فشعرت بحرارتها تتسرَّبُ إلى جلدها.

فهمست لنفسها:

- «إذًا، لكِ دورٌ قادم، وأنا مستعدة..».

أغلقت الدرج ببطء، وقلبُها يخفقُ على إيقاع الزهرة، مدركةً أنَّ الطريق قد فُتحَ بالفعل، وأنَّ ما ينتظرُها لم يعد في وسعها الهروب منه.

ليلةُ سلامٍ مؤقَّتة قبل العاصفة ..

عادت مجدولين إلى منزلها وقد تسلَّل الإرهاق إلى كلِّ تفاصيل جسدِها، تمشي بخطواتٍ ثقيلة، بوزن يوم بدا أطول من العمر كله. ومع ذلك، حين فتحت باب البيت، تسلَّل شعاعٌ من الضوء إلى قلبها، إذ وجدت ياسمين ونايف يمرحان مع والدهما ببراءة، كأنَّ عائلتها تحلِّقُ خارج نطاق الظلام المحيط بها.

جلست على الأرض بينهم، وتركت همومها على عتبة الباب، وراحت تلعبُ وتضحكُ معهم، كأنَّ قلبَها لم يعرف الحزن يومًا. ثم احتضنت طفليها، وسحبت كتاب الحكايات الصغيرة، وقرأت لهما قصَّة ما قبل النوم بصوتٍ دافئ، جعل ياسمين تغفو سريعًا بين الكلمات، بينما ظلَّ نايف يتشبَّثُ بيدها حتَّى أغمض عينيه أخيرًا. تأمَّلت وجهيهما النائمين، وشعرت أنَّ روحهما البريئة كانت تمدُّها بطاقةٍ غامرة، كأنَّها تغرفُ من قلبيهما نورًا يزيدها قوَّة.

تمدَّدت إلى جانب ياسمين قليلًا، ثم انتقلت إلى سرير نايف، تعانقُ أنفاسهما البريئة، ولأوَّل مرَّة منذ أشهرٍ طويلة، تسلَّل النَّومُ إلى عينيها دون أن يقتحِمَها شرهوت أو يسرقَها الكابوس.

بدا كأنَّه قد ترك لها الليلة عمدًا، يدركُ أنَّ قدومها إليه أمرٌ حاصلٌ، فاختار أن يستقرَّ في عرينه، مترقِّبًا ساعة المواجهة، آمرًا كوابيسه بالابتعاد عنها.

في صباح اليوم التالي، بدا المنزل ساكنًا على غير عادته، جلست إلى مائدة الإفطار تحاولُ أن تُقنعَ نفسها أنَّ الليلة الماضية لم تكن سوى استراحةٍ رحيمةٍ من قدرٍ أثقلَ روحَها لشهورٍ طويلة.

لكنَّها كانتا تحمل يقينًا بأنَّ الصَّمت لم يكن هدوءًا بل مهلة، وأنَّ الشَّر ينتظرُها كما ينتظرُ الصَّيَّادُ فريستَهُ عند الفخ.

رنَّ هاتفُها فجأة، فاهتزَّ قلبُها قبل أن تمتدَّ يدُها لتلتقطه، كان صوت أنين في الطرف الآخر، مرتعشًا، كأنَّه انعكاسٌ لمخاوفها هي:

- «مجدولين، علينا أن نلتقي، لم يعد في وسعنا أن نؤجِّل أكثر».

وما هي إلا لحظات قليلة حتَّى وجدت صديقتها أنين تقفُ عند باب منزلها، كأنَّ قلبها قادها بلا استئذان. بدت عيناها تحملان قلقًا عميقًا ورجاءً صامتًا، فابتسمت مجدولين رغم الإرهاق وأدخلتها.

أحاطت بهما سكينةٌ قصيرة، كهدوء ما قبل العاصفة، ثم انفجرت الأسئلة الثقيلة من فم أنين:

- «مجدولين، أخبريني بصدق، هل ما زلتِ مصرَّة على الذهاب إلى ذلك البيت الحجري؟»

أطرقت مجدولين برأسِها قليلًا، ثم رفعت عينيها المرهقتين وقد بدا فيهما بريقُ عنادٍ لا ينطفئ:

- «بلى يا أنين، أشعر أنَّ خيوط هذه اللعنة تلتفُّ حولي شيئًا فشيئًا، ولا مفرَّ لي من الذهاب إلى هناك، وإنهاء الأمر، وإلا فسيظلُّ يطاردني بلا رحمة».

شدَّت أنين على أصابع صديقتها بعاطفة جيَّاشة وقالت:

- «لكنَّك لست مضطرة لتحمُّل هذا وحدك، لماذا لا تبحثين عن طريقة أخرى؟ ربَّما هناك حلٌّ آخر، دون أن ترمي نفسك في قلب الظلام».

ابتسمت مجدولين بمرارة، ومسحت بكفِّها على يد أنين:

- «لو كان هناك حلٌّ آخر، لوجدته منذ زمن، لكنَّني جرَّبتُ كلَّ شيء، ولم يبق أمامي سوى أن أواجهه في عرينه، بقوَّة إيماني وتوكُّلي على الله سبحانه وتعالى».

ساد الصمت للحظة، قبل أن تهمس أنين:

- «إذًا، فلن أتركك، سأكونُ معك خطوةً بخطوة، لكن يجبُ أن لا نذهب فورًا، علينا أن نزور الدكتور رضوان الليلة أوّلًا، ربَّما يملكُ ما يساعدنا على

الأقل. أعلمُ أنَّ كلامَهُ يريحُ قلبك ويجعلُك تفهمين خطوط اللعبة، وربَّما يفتحُ لنا نافذة جديدة وسط هذه الألغاز».

تنهَّدت مجدولين، كأنَّها كانت تنتظرُ هذا الكلام لتجِدَ لنفسِها بعض التَّوازن، ثم نظرت في عيني صديقتها طويلًا، وأومأت برأسِها ببطء:

- «حسنًا سنذهبُ إليه الليلة».

القرار الذي كشف ما حجبته اللعنات ..

كانت المكتبة غارقةً في عتمةٍ وادعة، لا يكسرُها سوى ضوء الشموع الأصفر الخافت التي يتأرجحُ ظلُّها على الجدران كأنَّها أنفاسٌ متقطِّعة. خلف مكتبه العتيق جلس الدكتور رضوان، متَّكئًا على مقعدٍ خشبيٍّ يئنُّ مع كلِّ حركة، تحيطُ به الكتب المبعثرة كجنودٍ صامتة تحرسُ أسرارًا لا يجرؤ على لمسها سواه.

دخلت مجدولين إلى الغرفة يتبعُها ظلُّ أنين بخطواتٍ متردِّدة، لكنْ في أعينهما بريقُ إصرارٍ يلمعُ لأوَّل مرَّة. جلسوا والصمت يملأُ الهواء حتى يكادُ يكتم الأنفاس. كانت أنين توشك أن تفتح فمها، بينما أخفت مجدولين ارتجاف يديها تحت عباءتها الداكنة.

حينها رفعَ الدكتور رضوان رأسَهُ ببطء، وعيناه المرهقتان تومضان بلمعةٍ غامضة، كأنَّه التقط خوفهما. أشار بيده بخفَّة، مقاطعًا صمتهما المتردِّد، وقال بصوتٍ يحملُ ثِقَلَ الحقيقة:

- «لا داعي لأن تسألاني، أعرفُ ما جئتما من أجله، لقد اقتربت ساعةُ المواجهة يا مجدولين، وآن لك أن تدركي أنَّ سلاحَكِ الوحيد ليس علمًا يُحفَظ، ولا قلادة تلبس، بل ما غُرِسَ في قلبك منذ الصغر، إيمانُك باللَّه، وتحصينك بذكره، وتوكُّلك عليه».

رفعت مجدولين عينيها نحوه، فرأت في وجهه انعكاس قلقِها وإصرارِها في آنٍ واحد، وكأنَّهُ يقرأُ أعماقَها بوضوح. تابع رضوان بنبرةٍ أكثر جديَّة:

- «لقد قرأتُ الرموز القديمة مرارًا، وكلُّها تشيرُ إلى أنَّ المواجهة باتت وشيكة. الشَّرُّ لا يختارُ إلا القلوب المضيئة، ليحاولَ إطفاءها، لكن اطمئنِّي، فما دام قلبُكِ معلَّقًا بذكر اللَّه، فلن يملك عليه سلطانًا».

شعرت مجدولين برجفةٍ تسري في كيانها، كأنَّ كلماته أعادت ترتيب فوضى قلبها، وتمتمت بصوتٍ يكادُ يُسمع:

- «كنتُ أخشى أن يكونَ الطريقُ مظلمًا بلا ضوء، لكنَّ كلماتك جعلتني أدركُ أنَّ النُّورَ لم يغادرني قط».

قال لها الدكتور رضوان بنبرةٍ أبويَّة حزينة:

- «تذكَّري أيضًا، تلك القلادة النحاسيَّة التي تحملينها ليست لعنةً كما تظنين؛ إنَّها عهدٌ قديمٌ سيقفُ معك لا ضدك، وحين تشتدُّ المواجهة ستكتشفين أنَّ الظلام نفسه قد ينقلبُ بين يديك ويخضعُ لك. لكنَّ القوَّة التي ستنقذُكِ لا تأتي من معدنٍ أو ظلام، بل من قلبكِ، وأعماقِك التي لم تختبريها بعد. إيَّاكِ أن تنسي أنَّك ذاهبةٌ إلى قعرِ الظَّلام، وهناك قد لا يكونُ للعودةِ معنًى، ولا للضوء ممر، مصيرُكِ بين النجاة والهلاك سيُكتبُ في تلك اللحظة، ولا ضمان لما سيكتبُهُ القدرُ لك».

في تلك اللحظة، شعرت مجدولين بارتعاشةٍ غريبة تسري تحت جلد عنُقِها، لا تشبِهُ أيَّ نبضٍ بشري. كأنَّ شيئًا راقدًا في أعماقها بدأ يستيقظُ من سباته. اخترق البريقُ النحاسي بشرتها، وظهرت القلادة واضحةً أمام عيني الدكتور رضوان وأنين. كانت تلك المرَّة الأولى التي يرى قلادتها أحدٌ غيرها.

انفجرت منها ومضةٌ حادَّة كوميض البرق في ليلةٍ عاصفة. لم يكن ضوءًا حاملًا للطمأنينة بل لمعانًا باردًا أرسل قشعريرة في أجسادهم، كأنَّها رسالةٌ صامتة لمجدولين تقول:

- «الطريق الذي ستسلُكينه قد يلتهمكِ قبل أن يحرِّركِ، عليكِ أن تكوني قويَّة بما يكفي لتلك الرحلة في أغوار شرهوت».

شهق الدكتور رضوان، واتَّعست عيناه كأنَّه يشهدُ لغزًا أسطوريًّا كُتبَ في السطور القديمة، ثم خرج حيًّا من بين الأوراق:

- «إذًا، لم تكن الرموز أسطورة ولا خرافة، هذا هو العهد النحاسي بعينه، لقد نهض من سباته».

ثم رفع بصره نحو مجدولين، وصوتُه يتهدَّج:

- «أخبرتك يا مجدولين، القلادة النحاسيَّة ليست لعنة كما ظننتِ، إنَّها روحٌ تنبضُ لتكشفَ لك الحقيقة. من خلال وصفك لها، وعن أوقات ظهورها، أدركتُ أنَّها ليست جمادًا، بل عهدٌ لملكة النور، السيِّدة ذهبه، صاحبتِها التي لم تفنَ، بل تركت جزءًا من ذاتِها هنا، في عنُقِك، ليُكمل رسالتها».

تسمَّرت أنين في مكانها، وعيناها متَّسعتان كأنَّها تتابعُ مشهدًا خرج لتوِّه من رحم حلمٍ غريبٍ يتجسَّدُ أمامها ببرودةٍ مريبة. لحظة الصدمة تلك خيَّمت على الغرفة، فأثقلتها بصمتٍ خانق يشبهُ وقع أقدارٍ تُخطُّ ببطء في الظِّلال.
خفضت مجدولين رأسها، والدُّموع تتلألأُ على حواف عينيها، بينما مدَّت أنين يدها لتقبض على كفِّ صديقتها المرتجفة، تحاولُ أن تبثَّ فيها شيئًا من الثبات، إلا أن صمتها العاجز كان أبلغ من أيِّ تعزية منطوقة.

تقدَّمت مجدولين نحو الباب وتوقَّفت لحظة، ثم التفتت إلى الدكتور رضوان وأنين، وفي عينيها خليطٌ مربِكٌ من صلابة حزينة وانكسارٍ لا مفرَّ منه، قبل أن تقول بصوتٍ متردِّد:

- «مهما حدث، لا تسمحا للظلام أن يبتلعكما، دعاني أواجهه».

حاولت أنين أن تعاود الإمساكَ بيدها، كأنَّها تستجدي لحظةً إضافيَّة تُؤجِّل الفراق، غير أنَّ مجدولين انسحبت برفقٍ هادئ، وعلى شفتيها ابتسامةٌ حزينة تتكثَّف فيها كلُّ لحظات الوداع، وكلُّ الخوف مما سيأتي، ارتجفت أنين ثم قالت:

- «لن أتركك وحدك، حتَّى لو كان ذلك يعني أن أرافقك إلى الجحيم».

أمَّا الدكتور رضوان فقد ظلَّ واقفًا عند العتبة، تلمعُ عيناه بقلقٍ مكتوم:

- «إن تعثَّرتِ هناك، فتذكَّري أنَّ القلوب التي تحبُّك هي خيطُك الأخير، لا تقطعيه».

ساد صمتٌ ثقيل بعد كلماته، حتَّى بدا كأنَّ الليل نفسه أصغى.

أطرقت مجدولين برأسها، ودمعةٌ ساخنة انحدرت على وجنتيها، ثم استدارت ومشت بخطواتٍ بطيئة، تحملُها خطواتُها بعيدًا عن عالمها إلى عالم آخر.

لحقت بها أنين دون تردُّد، كأنَّها تعلنُ أنَّ الرحلة لم تعد تخصُّ صديقتها فقط، ثم أطبق صمتٌ ثقيلٌ على المكان، تاركًا خلفه سؤالًا واحدًا لا جواب له:

هل ستعود هاتان الصديقتان معًا، أم أنَّ الظَّلال قد خطَّت مصيرهما مسبقًا؟

وداعٌ يذوبُ في صمت الليل ..

وصلت مجدولين إلى بيتها برفقة أنين التي رفضت أن تتركها حتَّى عتبة الباب. توقَّفت والتفتت إليها وقالت بصوتٍ متعب:

- «يجب أن تعودي الآن إلى بيتك لترتاحي يا أنين، موعدنا غدًا سننطلقُ بسيَّارتك».

أومأت أنين برأسِها، وعيناها تلمعان بقلقٍ لم تستطع إخفاءَه، فاقتربت مجدولين منها، واحتضنتها وهي تهمس:

- «لا تتأخَّري».

ابتعدت أنين بخطواتٍ متردِّدة، تتلفّت بين الحين والآخر، حتَّى توارت عن أنظار مجدولين، عندها أدارت الأخيرة المفتاح بيدٍ ثقيلة، ودخلت منزلها بصمتٍ مثقلٍ بالغياب القادم.

لم يكن الدخول إلى البيت سوى بداية الوداع الأصعب، مضت بخطواتٍ هادئة نحو غرفة صغيريها، كأنَّها تخشى أن توقظ الحلم الذي يحتضنهما. وجدت نايف نائمًا على جانبه، يضمُّ وسادتَهُ الصَّغيرة كأنَّها حصنٌ يلوذُ به من العالم، بينما كانت ياسمين غارقةً في غفوةٍ طفوليَّة، تعانقُ دميتها بشراسة.

اقتربت مجدولين وجلست بجوارهما، ومدَّت يدها بارتجافٍ لتداعب شعر نايف، ثم انحنت تطبعُ قبلةً طويلة على جبين ياسمين، كأنَّها تودُّ أن تترُكَ أثرها الأخير محفورًا في أحلامهما.

غصَّ قلبُها بفيضٍ من الكلمات التي تزاحمت عند شفتيها، لكنَّ صوتها لم يجد طريقَهُ إلا همسًا مرتجفًا، كأنَّه صلاةٌ سريَّة:

- «ناما بسلام يا نور روحي... وإن استيقظتما ولم تجداني، فلتعلما أنَّني أحبُّكما أكثر من نفسي».

حبست دموعها للحظة، ثم مسحتها سريعًا وغادرت الغرفة، كأنَّها تغلقُ فصلًا كاملًا من حياتها.

خطت نحو غرفة المعيشة بخطواتٍ بطيئة، تتعثر فيها أنفاسها، فإذا بزوجها جالسًا في العتمة، ينتظرها. رفع رأسه نحوها، يتأمَّلُ ملامحها المرهقة بعينين مثقلتين بالهم، كأنَّهما تبحثان عن جوابٍ لسؤالٍ لم يجرؤ على طرحه من قبل:

- «حبيبتي مجدولين، إلى متى ستحملين هذا الصمت كأنَّه قدرٌ مفروضٌ علينا؟

لستِ على طبيعتك، فالإرهاقُ مرسومٌ على وجهك أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

أعرف أنَّك خرجت مع أنين، لقد سمعت بعضَ أحاديثكما، وأعرفُ أنَّك زرتِ الدكتور الذي أخبرتني عنه برفقتها. تمنَّيتُ لو أنَّك أخبرتني قبل أن تذهبي. شعرتُ بأنكِ تحملين عبئًا وحدك، وتشاركين همومك مع الغريب وأنا أقرب الناس لك؟!».

تنهَّد ببطء، ثم انبعثت منه زفرةٌ خشنة، تغيَّرت معها نبرةُ صوته، تحملُ شيئًا من القلق المكبوت والرهبة الخفيَّة.

- «منذ أيَّام بدأت أرى ظلالًا تتحرَّكُ في أرجاء البيت، تظهرُ أمامي وتختفي فجأة كأنَّني أهذي.

يداهمُني هواءٌ بارد أحيانًا، كأنَّ الأبوابَ مفتوحةٌ على فراغٍ مجهول، وحتَّى عندما أكون في مكتبي أكتبُ تقاريري، تجتاحني رائحةُ كبريت محترق، تملأُ صدري ورأسي، وعندما أنهضُ لأبحث عن مصدرها لا أجدُ شيئًا. أعيشُ بين ظلالٍ لا أراها، ورائحةٍ غريبةٍ لا تفسيرَ لها...

وها أنا أراكِ كلَّ ليلةٍ أكثر شحوبًا، كأنَّ شيئًا ينزِفُ منك ببطء، ويتركُ خلفَه هذا الإرهاق المستمر، فهل لديك تفسيرٌ لما يجري؟»

تجمَّدت الكلمات في حلقها، وهي تدركُ أنَّ الحوار الذي طالما خشيت وقوعه قد بدأ أخيرًا، لكنَّها تنفست ببطء، وقالت بصوتٍ حزينٍ منكسر:

- «نعم... ذهبتُ إليه، لم أعد أحتمل أكثر، ما يلاحقني يزدادُ قوَّةً يومًا بعد يوم، والظِّلالُ التي كانت تطاردُني وحدي لم تعد خفيَّة، بل بدأت تتكاثرُ حولي بلا رحمة وتمتدُّ إلى أسرتي.

لذلك قرَّرتُ أن أواجهه في عقر داره، هناك حيثُ يختبئ الشُّر في كلِّ زاوية وينتظرُ اللَّحظة المناسبة ليبتلعني».

شهق وهو يمسكُ بيديها بقوة، وصوته ينفجر بحرقة:

- «دعيني أرافقك! لا أحتملُ فكرة ذهابك وحدك، ماذا تظنين بي؟ ما قيمةُ حياتي إذا فقدتك؟»

هزَّت رأسَها بقوَّة، والدَّمعُ يوشكُ أن يفيضَ من عينيها:

- «من أجل الطفلين؛ فمن سيحميهما من بعد الله غيرك؟ وأنت تعلمُ أنَّ أمي استقرَّت عند أختي في مدينة الرياض بعد وفاة والدي، ولا أستطيع أن أخبرها بما يجري كي لا أجعلَها تقلق، فإنَّها كما تعلم امرأة مسنَّة.

أنت قوَّتُهما وسندُهما، وبدونك سينهار البيت، وجودك بجانبهما هو قوَّتي أيضًا، فلا تحرمني منه».

ساد صمتٌ ثقيلٌ للحظات، قبل أن تجتاح الغرفة موجةٌ مفاجئة من البرودة، ومرَّ ظلٌّ سريع كالبرق أمام ناظريه، فتشنَّجَ جسدُه، وارتجف صوته:

- «أعوذُ بكلمات اللَّه التَّامَّات من شرِّ ما خلق.

ما هذا؟! هل رأيتِ ما رأيت؟ لا بُدَّ من حلِّ الأمر من جذوره قبل أن يزدادَ الوضعُ سوءًا».

‴

اقترب منها وعانقها بقوَّة كأنَّه يريدُ أن يخبِّئها داخله، ليخلِّصَها من هذا الشَّر الذي يلاحقُها،

وشعر بنبض القلادة على عنُقِها كأنَّها تطمئنهُ على زوجته، ثم نظر في عينيها وقال:

- «اذهبي، لكن تذكَّري دائمًا أنَّك لستِ وحدَك، وإذا ما وهنت قواك، فستجدين قلبي مأواك وسندك الذي لن يخذلك».

اغرورقت عيناها بالدمع، لكنها التزمت الصمت، مكتفية بإطباق جفونها على لحظة أرادت أن تحفظها لنفسها، كأنها آخر ملاذ من الأمان قبل الرحيل، بينما التفت هو نحو النَّافذة وقد لمح ظلًّا أسود ينسابُ بين الأشجار، يتدلّى كأفعى من دخان، يختفي ويعود، كأنَّه يترصد فريسته.

تجمَّد للحظة، ثم أدار رأسه نحو مجدولين، لكنَّه لم يقل شيئًا، فقد أدرك أنَّ القرار قد اتُّخذ، وأنَّ الليل المقبل ليس سوى بدايةٍ لعاصفةٍ لا مفرَّ منها.

كيف لقلبٍ بشريّ أن يصمُدَ أمام ثِقَل لعناتٍ تُحاكُ

في سراديب الظَّلام؟

إنَّهُ الحب، يفعلُ المعجزات.

الختم الكرزي

الفصل الثامن:
الممر إلى قلب الظَّلام ..

نُذر الطريق ..

انطلقت مجدولين مع صديقتها قبل أن يُمزِّق الفجرُ خيوط الليل تمامًا، وقبل أن تخفِت أضواءُ جدَّة الساحليَّة النَّابضة بالحياة، المدينة التي لا تنام، وتتنفَّسُ على مدار الساعة. تركتا البحر برائحته المالحة وصوت موجاته، وغاصتا في صحراءَ تمتدُّ بلا نهاية، حيث تتشابكُ الرِّمال مع الجبال السوداء، كأصابع عملاقٍ حجري يحجبُ السَّماء عنها. كان الطريق ضيِّقًا ملتويًا، يزدادُ قسوةً كلَّما اقتربتا جنوبًا. بينما كانت الوديان العميقة تردِّدُ صدى الريح بأصواتٍ تشبهُ همسات أرواحٍ ضائعة منذ زمن بعيد.

كان الصمتُ داخل السيارة ثقيلًا، يضغط على الصدور كأنَّ العالم كلَّه قد توقَّف. أمسكت أنين بالمقود بقبضةٍ متوتِّرة، تحاولُ تثبيت نظرها على الطريق، أمَّا مجدولين، فقد كانت شاردة العيون، معلَّقةً بما تركته خلفها، يخفقُ قلبُها بعنف، كأنَّ صدرها ضاق بما تحمله، وأنَّ هذه الرحلة ليست مجرَّد طريقٍ إلى بيتٍ حجري، فمصيرُها ومصيرُ عائلتها يقعان على عاتقها.

رأت في المرآة الخلفيَّة ظلَّ سيَّارة سوداء، نوافذُها معتَّمة، تتحرَّكُ ببطءٍ خلفَهُما، وقد بدت كقطعةٍ من ليل متجسِّد، كأنَّها تتربَّصُ وتنتظرُ اللَّحظة المناسبة للانقضاض. لكن في كلِّ مرَّة تلتفتُ أنين تختفي السيارة، كأنَّها لم تكن أصلًا. فتسألُها محاولةً إخفاء قلقها:

- «هل تتخيَّلين؟»

أطبقت أصابعها على المسبحة الزرقاء في يدها دون أن تجيب، كأنَّها تتشبَّثُ بها كطوق نجاة.

وعلى مشارف محطَّة وقودٍ قديمة تآكلت جدرانُها وأصبح سقفُها مثل قفصٍ حديديٍّ مهجور، أوقفت أنين السيَّارة، فالمكان يبعثُ على الرَّهبة، والصحراءُ حولهما ممتدَّة بلا نهاية، والشَّاحنات القديمة متناثرة على الطريق كجُثثٍ صدئة،

رأت مجدولين بينها رجلًا غريبًا داكن البشرة، كأنَّها طبقةٌ من حُمَمٍ بركانيَّة، تحدِّقُ بها عيناه الصغيرتان كعيني صقر، ببرودٍ مرعب، لم يتحرَّك خطوة، لكنَّ نظرته اخترقت قلبَها كالسكين.

وفي رمشة عين، اختفى الرجلُ بين هياكل الحديد كأنَّه تبخَّر. ارتجف جسدُها، وتذكَّرت حكايات الدكتور رضوان عن «الغول» الذي يتشكَّلُ للمسافرين في هيئةٍ بشريَّة ليضلَّهم عن الطريق، أو ليعلِنَ أنَّهم في مكانٍ يجب أن لا يدخلَهُ البشر، همست لنفسها:

- «هل أرسلنا شرهوت إلى هذه المحطَّة المهجورة لنرى وجوه خدمه؟»

تابعت أنين القيادة، وقد ازداد الطريقُ ضيقًا وعتمة، رغم أنَّ النهار كان في أوَّله. وصلتا إلى قريةٍ صغيرةٍ تبدو كأنَّها أسطوريَّة،

ببيوتها الطينيَّة والحجريَّة المتشابكة، وأزقَّتها الضيِّقة التي تتلوى مثل الأفاعي، وأطفالُها بوجوهٍ متربةٍ يراقبون السيَّارة بفضول، عيونُهم صامتة، تخلو من البراءة، ولا تنطق أفواههم بكلمة، كأنَّ حضورَهم وحده يثقلُ الجوَّ.

ذهبت أنين لشراء ماء وطعامٍ من دكَّان صغير، بينما بقيت مجدولين تنتظرُ في السيارة، يعتصرُ القلقُ قلبَها على طفليها اللَّذين تركتهما خلفها، وصورة وجهيهما لا تفارقُ ذهنَها، بعد آخر كابوسٍ رأته حيث أحاطَ شرهوت سريرَهُما بالنَّار. وفجأة، لمحت قطًّا أسود يقفُ على صخرةٍ مقابلة. كان ضخمًا بصورةٍ غير طبيعيَّة، وعيونه الصفراءُ تلمعُ مثل جمرةٍ في اللَّيل. لم يكن كالقطط العاديَّة، بل كشيءٍ يعرفُها جيِّدًا، يحدِّقُ فيها طويلًا، حتَّى شعرت أنَّ عينيه تكتبان داخِلَها نبوءةً لا تستطيعُ قراءَتها. وبخطواتٍ واثقة، عبر الطريق أمامها دون خوف، واختفى بين الصخور، فتذكَّرت على الفور خرافات جدَّتِها:

- «إذا اعترض قطٌّ أسود طريق المسافر، فليعلم أنَّ عالم الجن قريب».

وازدادت قشعريرتُها وهي تتساءَلُ في نفسها: هل القط رسالة؟ أم عينٌ من عيونِ شرهوت؟

عادت أنين وقد رأت شحوب صديقتها، فقالت بقلق:

- «وجهُكِ كالحجر، باهت وزائغ، ماذا حدث؟»

همست مجدولين:

- «أشعر أنَّ الشَّر قريبٌ، هناك شيءٌ ما يراقبُنا، هذه الرحلة ليست طبيعيَّة، كلُّ شيء يقول إنَّنا نقتربُ من الخطر».

ابتسمت أنين ابتسامةً باهتة وهي تشغِّلُ السيارة:

- «لا تقلقي، نحن معًا والدكتور رضوان أعطانا آيات وأدعيةً تحفظُنا من شرِّ الطريق».

ثم نظرت إلى الجبال التي بدأت تبدو أوضح وأكثر هيبة، وقالت:

- «هل تذكرين أسطورة جبلِ الجن؟ كانوا يردِّدون أنَّ كلَّ من يجرُؤ على المرور بجانبِهِ يفقِدُ صوابه، وحتَّى في وضح النَّهار، يخشون ظلاله التي تتربَّصُ بهم كوحشٍ صامت».

ارتجفت مجدولين وهمست:

- «أتمنَّى ألا يعترض طريقنا، لا ينقصُنا مزيدٌ من الجنون».

لكنَّ قلبَها كان يهمسُ بالعكس، فهي تعرفُ أنَّ كلَّ ميلٍ تقطعانِه يقرِّبُهما أكثر إلى قلب الظَّلام؟

كأنَّ الطريق نفسَهُ ليس سوى ممرٍّ ضيِّقٍ يقودُ إلى فم وحشٍ يفتحُ فكَّيه في انتظارِ ضحاياه.

شدَّت مسبحتها الزَّرقاء إلى صدرها، وأغمضت عينيها للحظة، ثم تمتمت بصوتٍ مرتجف:

- «بسم اللَّه على قلبي، حتَّى يسكُنَ ويطمئن».

بيت الحماط ورائحة اللعنات ..

بعد رحلة شاقة ومضنية، دامت ساعات طويلة، اخترقتا فيها طرقًا جبليَّة وعرة وملتوية، كأفاعٍ حجريَّة نائمة تحت شمسٍ حارقة، وصلتا أخيرًا، مع اقتراب خيوط الغروب الأولى وتلوينها السماء بألوان الدم والنار، إلى القرية الصغيرة المنعزلة التي وصفتها لها زينة في حضورها الأوَّل في العيادة والتي كانت تقعُ في حضنِ وادٍ عميقٍ بين الجِبال الشَّاهقة، كأنَّها جوهرة منسيَّة في تاج الطبيعة القاسية، أو ربَّما لعنةٌ قديمة تنتظرُ من يوقظها.

كانت القرية تبدو كأنَّ الزمن قد توقَّف فيها منذ قرون، أو أنَّها خارج نطاق الحضارة والتطوُّر.

بيوتٌ طينيَّة وحجريَّة قديمة متناثرة على سفح الجبل، وأزقَّةٌ ضيِّقة تكادُ لا تتَّسِعُ لمرور سيَّارةٍ واحدة. كان الصمت سيِّد المكان، لا أصوات أطفال يلعبون، ولا نساء يتبادلْنَ الأحاديث أمام الأبواب، ولا وقع خطواتٍ على الأزقَّة الضيِّقة. لا صوت حياةٍ فيها إلا نباحَ كلبٍ بعيدٍ يتردَّدُ صداه، وصياح ديكٍ أجشّ بدا كأنَّه يودِّع النَّهار وهو يعلم أنَّ ليل القرية لا يشبهُ أيَّ ليل.

حملت رائحة المكان شيئًا غريبًا، مزيجًا من ترابٍ عتيق ورطوبة حجارةٍ لم ترَ الشَّمس منذ قرون.

كان الهواءُ ثقيلًا، كأنَّ القرية اقتُلِعَت من نسيجِ الزمن وعلِّقَت بين الحياة والموت، لا تنتمي إلى أيِّ عصر، ولا تسمحُ لأيِّ زائرٍ أن يغادِرَها كما دخل. شعرت مجدولين في تلك اللحظة بقلبِها يطرقُ صدرها من الداخل، كأنَّهُ بابٌ حجريٌّ قديم يُفتحُ بصعوبة، وأخذت القلادة على عنُقِها تثقلُ أكثر فأكثر، كأنَّها تحذِّرُها أنَّ هذه القرية ليست سوى عتبةٍ نحو قدرٍ مظلمٍ ينتظرُها عند بيت الحماط.

توقَّفت السيَّارة عند طرفِ الطريق، حيث جلسَ رجلٌ مسنٌّ أمام بيته الطيني المتداعي. كان منحني الظَّهر، يحيطُ به صمتٌ ثقيلٌ لا يكسِرُه سوى

ارتشافِه البطيءِ لفنجان شاي فاتر، تتأمَّلُ عيناه الغروب بنظرةٍ غريبة، تحملُ استسلامًا حذرًا لا ينطفئ.

بدا كأنَّه حجرٌ من أحجار القرية، مشدودٌ إلى الأرض بجذورٍ خفيَّة لا يراها أحد. ترجَّلت أنين واقتربت منه بخطواتٍ حذرة، وقالت بصوت هادئ:

- «السلام عليكم، يا عم، نبحثُ عن بيت العم صالح أبي سعيد..».

رفع العجوز رأسه ببطء، كمن استيقظ من نوم طويل، ونظر إلى أنين أوَّلًا ثم إلى مجدولين، وأطال التحديق فيهما بنظرةٍ غامضة امتزج فيها الفضولُ بالريبة، كأنَّهما من كتاب أساطيرَ يعرفُه، لكنَّه لا يجرؤ على لمسه. ثم مدَّ يده المرتجفة التي حفرت فيها السنون أخاديد عميقة، وأشار بها نحو تلَّةٍ صغيرة على أطراف القرية. هناك، حيث انتصب بيتٌ حجريٌّ معزول، يطلُّ على وادٍ سحيق يلفُّهُ ضبابٌ كثيف، وتحيطُ به أشجار الحماط العملاقة، التي تلتفُّ أغصانُها على نحوٍ يوحي بأنَّها تحرسه أو تخنقه، قال العجوز بصوتٍ خشن:

- «ذلك هو بيت صالح، بيت الحماط الملعون».

ثم بصق على التراب قرب قدميه، كأنَّه يطردُ الكلمة وما تحملُه من شؤم، وأردف بصوتٍ ضعيف يهمسُ بسرٍّ يجبُ أن لا يُسمع:

- «كان بيتًا عامرًا حتَّى عامٍ مضى، ثم بدأت الأصواتُ الغريبة تُسمعُ منه ليلًا، واختفت زوجة الابن وحفيدُه فجأة، ويقالُ إنَّ الجدَّ لم يمت، ولم يدفن، بل اختفى قبلهما بسنوات في ظروفٍ لا يفسِّرُها عقل».

سكتَ قليلًا، ثم قال:

- «لم يبقَ هناك إلا زوجته أمُّ سعيد، امرأةٌ عجوزٌ صامتة، لا تستقبلُ أحدًا. لكنَّها تفتحُ الباب إذا عرفت أنَّ القادم ليس غريبًا».

ثم تنهَّد ببطء، وبدا صوتُه أثقل:

- «احذرا، هذا البيت ليس كما يبدو، فجدرانُه مشبعة برائحة موتٍ قديم، وتتسرَّبُ من بين حجارته لعناتٌ لا تعرفُ الرحمة».

تابعتا السير ببطء على الطريق الضيِّق المؤدِّي إلى التلَّة، وكلَّما واصلت السيارة سيرها في ذلك الممرِّ المتعرِّج بدا لهما أنَّ الهواء يزدادُ ثقلًا ورطوبة، كأنَّهما تخترقان ستارًا خفيًّا يفصلُ القرية عن عالمٍ آخر. أخذ البيت الحجري يتَّضحُ أكثر مع كلِّ منعطفٍ في الطريق، كأنَّه جزءٌ مظلمٌ متجذِّرٌ في الصخر، جدرانُه العالية تبدو كأنَّها امتصَّت قرونًا من الغبار والدموع، ونوافذه الغائرة أشبهُ بعيونٍ ميِّتة، لا يطلُّ منها نور، لكنَّها ترتقب بصمتٍ موحش.

انتصبت حول البيت أشجارُ الحماط العملاقة، بأوراقِها الداكنة على نحوٍ غير مألوف، وأغصانِها المتشابكة التي بدت كأذرُعِ كائناتٍ متوحِّشة تتربَّصُ وتحرُسُ المكان. حتَّى خيوطُ الشَّمس المتكسِّرة خلف الجبال عجزت عن اختراقِ تلك الكثافة، فبقي البيت غارقًا في عتمةٍ أبرد من الظَّلام نفسه.

شعرت مجدولين بأنفاسها تتكثَّفُ في صدرها، ووضعت يدها على القلادة حول عنقها، فإذا بحرارتها تتصاعدُ كأنَّها تتنفَّسُ معها، وتنبضُ بانتظامٍ مع ضربات قلبها. لم تعد القلادة مجرَّد معدنٍ جامد، بل أصبحت كيانًا حيًّا، بدأ يستيقظُ ويستجيبُ لرهبة المكان الذي تقتربان منه، كأنَّها تعرَّفت على البيت، وأعلنت أنَّها عادت إلى عرينها القديم. توقَّفت أنين فجأة عند طرف الطريق، جاحظة العينين، تتأمَّلُ المشهد بصمتٍ متوتِّر، ثم تمتمت بصوت مرتجف:

- «كأنَّ الحماط يحرسُ المقبرة، انظري كيف تخنقُ أغصانُه الضوء».

نظرت لها مجدولين والقلق يخطفُ أنفاسَها:

- «ليس الضوء فقط يا أنين، أشعرُ كأنَّنا قاب قوسين أو أدنى».

ولوهلةٍ خُيِّل لهما أنَّ البيت نفسه يتحرَّكُ ببطء، ويتنفَّسُ مع الريح، ويترصَّدهما كما يراقبُ المفترسُ فريسَتَه. توقَّفت السيَّارة أمام بوَّابته

الخشبيَّة العتيقة التي تصدرُ صريرًا متقطِّعًا كلّما داعبتها الريح، كأنَّها تئنُّ تحت ثِقَل السنين. تبادلت مجدولين وأنين نظرةً خاطفةً متوتِّرة، ثم تقدَّمت أنين بخطواتٍ مثقلة، ورفعت يدها لتطرُقَ الباب ثلاث طرقاتٍ متتابعة ارتدَّ صداها.

انفتح الباب ببطء لتظهرَ في العتمة امرأةٌ عجوز نحيلةُ الجسد، منطفئةُ الملامِح، عيناها غائرتان في وجهها كأنَّهما فوهات براكين توشك أن تخمد. كانت هذه أمَّ سعيد التي لم تُبدِ اندهاشًا ولا كلَّفت نفسها بالسؤال. نظرت إليهما نظرةً طويلة، كأنَّها تتحقَّق من أنَّهما من تنتظرُ وصولهما منذ زمن، ثم رفعت يدها المرتجفة وأشارت نحو الداخل، وهمست بصوت يكادُ لا يُسمع:

- «يمكنكما النَّوم هنا الليلة، هذه الغرفة ما زالت آمنة».

ثم استدارت ببطء، وغابت في الممرِّ الداخلي المظلم، تاركةً وراءَها أثر بَخُورٍ عالقٍ في الجدران، رائحتُه مُرَّة وكثيفة، أشبه بدموعٍ محترقة أو ذكرياتٍ لم تندثر. دخلت مجدولين وأنين إلى البيت، فأحاط بهما صمتٌ من نوعٍ مختلف؛ صمتٌ حي يتنفَّسُ من بين الشقوق الحجريَّة، بينما ألقى الممرُّ الضيِّق بظلالٍ مرتعشة من فانوسٍ يتدلَّى عند المدخل، كلَّما اهتزَّ نورُه ارتجفت الظِّلال كأشباحٍ تستعدُّ للرقص. توقَّفت أنين فجأة وهمست بخوف:

- «مجدولين، هل أنتِ واثقة من هذا؟ المكان يضجُّ برائحة الموت واللَّعنات».

وضعت مجدولين يدها على القلادة التي أخذت تسخنُ أكثر، ثم قبضت بأصابعها على مسبحتها الزرقاء، وقالت بصوتٍ بدا ثابتًا رغم الارتجاف الذي يملأُ قلبَها:

- «ليس لدينا خيار، يجبُ أن نجدَ القلادة، ربَّما تكون خلاصنا، أو نهايتنا».

ثم تمتمت بدعائها المعتاد:

- «بسم اللَّه على قلبي، حتَّى يسكُنَ ويطمئن».

ـَ

فاهتزَّت الجدران الحجريَّة بارتجافٍ خفيف، كأنَّ الكلمات المقدَّسة تسلّلت بين شقوقها وبثَّت فيها رهبة خفيَّة. شعرت مجدولين للحظة أنَّ البيت الملعون قد انكمش تحت وطأة الدعاء، وأنَّ ما يختبئُ خلف صمته قد تراجع خطوةً إلى الوراء، خائفًا من نورٍ لا يقوى على احتماله.

صدى الماضي المشؤوم ولعنة الختم المتوارثة ..

مع أنَّ فكرة النوم في تلك الغرفة الموحشة، التي تفوحُ منها رائحةُ الموت والجنون بدت مستحيلةً ومرعبة، إلا أنَّهما قرَّرتا أن تأخذا قسطًا من الرَّاحة، وأن تشرعا في رحلة بحثِهما عن مكان القلادة السوداء «المفتاح» في الصَّباح الباكر.

أغلقت مجدولين البابَ الخشبيَّ الثَّقيل بإحكام، وقد كان متماسكًا، قويَّ المفاصِل، يئنُّ بصوتٍ خافت حين يُحرَّك، صُنِعَ من جذوعٍ عتيقة رُصَّت بعناية، كأنَّ أمَّ سعيد -بما تَبقَّى لها من حواس وذكريات- تحرِصُ على بقائِه واقفًا كحارسٍ عنيد.

قامت بإحكامِ إقفال الباب الحديدي القديم الصدئ الذي يلتفُّ بصعوبة على مزلاجِ الباب، كأنَّهُ جزءٌ من الزَّمن لا يموت، ثم أشعلت سراجًا قديمًا فوق الطاولة، فانتشرَ ضوؤُه الواهِنُ كنجمةٍ صغيرةٍ ضائعة وسط محيطٍ من الظَّلام الدَّامس.

كانت الغرفة التي ستبيتان فيها ذات جدارٍ حجريٍّ سميك ونوافِذَ صغيرةٍ مغطَّاةٍ بستائر قديمة مهترئة، ورغم الغبار الذي تراكمَ على أطرافِ الأثاثِ الخشبي إلا أنَّها لم تكن مهجورةً تمامًا، فقد بدا فيها أثرُ يدِ عجوزٍ تمرُّ من هنا كلَّ صباح. يدٍ تصرُّ على ترتيب الفوضى ولو كان ذلك دون جدوى.

في أرجاء الغرفة طاولةٌ خشبيَّة صغيرة، وبِساطٌ صوفيٌّ مُرقَّعٌ نُسِجَ منذُ عقود، وسريرٌ بُسِطَ عليه فِرَاشٌ قطنيٌّ رقيق، تنبعثُ منه رائحةُ الكافور والزعتر البري، رائحةٌ لم تكن مجرَّد عبيرٍ عشبيٍّ عابر، بل كانت أشبه بذاكرةٍ قديمة عالقة بين الحجارة. يذكِّرُ الكافور بالموت والتحنيط، كأنَّ أرواحًا حُفِظت في طيَّاته، بينما يهمسُ الزَّعتر البري بأنَّ هذا البيت كان في أحد الأيَّام مكانًا للشفاء قبل أن يتحوَّل إلى مأوًى للعنة.

جلستا متلاصقتين، تحاولُ كلٌّ واحدةٍ منهما أن تستمدَّ القوَّة من الأخرى، وتخفي خوفَها خلف قناعٍ من التماسُك، وبمجرَّد أن أغمضت مجدولين عينيها،

وجدت نفسَها في كابوسٍ حي، رأت فيه البيت الحجري يعودُ في الزمن، حين كان في أوج ازدهاره المظلم، تفوحُ منه رائحة البَخُور الغريب، والقرابين، وتتصاعدُ أصواتُ التعاويذ من كلِّ أركانه.

كان الجد صالح في مقتبل العمر، جالسًا في الغرفة نفسِها، عريض المنكبين، ملامِحُهُ قاسية وحادَّة، كأنَّها نُحِتَت من صخر الجبال. أمامه مبخرةٌ فخَّاريَّة سوداء يتصاعدُ منها دخانٌ نفَّاذ برائحة كبريتٍ ممزوجٍ بدمٍ جاف. وإلى جانِبِه وعاءٌ فخاريٌّ يحوي سائلًا أحمر، ويرمي أوراقَ حماط مجفَّفة فوق الجَمرِ المتَّقد، بينما تتشكَّلُ الأبخرة في هيئة أفاعٍ تتلوَّى ثم تختفي.

كان يتمتمُ بكلماتٍ غريبة، بلغةٍ لم تفهمها، لكنَّها شعرت بقوَّتها وبأنَّها ليست من لغاتِ البشر، ثم بدأ ينظرُ إلى زاويةٍ مظلمة في الغرفة كأنَّهُ يخاطِبُ كيانًا خفيًّا. دخلت زينة وهي طفلةٌ صغيرة بعينين مذعورتين تحملان نظرة من رأى الجحيم مبكِّرًا.

أمرها جدُّها بالجلوس أمامَه بخشونة، وأمسك بيدها النَّحيلة بقوَّة، كمن يمسِكُ بطائرٍ صغيرٍ يريدُ كسرَ أجنحته. غمس إصبعها في السَّائل الأحمر ورسمَ على جبينِها رمزًا مخيفًا، لعينٍ مفتوحة تحيطُ بها ألسنةُ اللَّهب. تمتمَ بالكلمات والتعاويذ المشؤومة أنفسها التي كانت تتردَّدُ في أرجاء الغرفة كأنين الأرواح المعذَّبة، أو كهمسات الشَّياطين. صرخت مجدولين من داخِلِ الحلم لكنَّ صوتها لم يُسمع. رأت الرُّعب في عيون الطفلة التي تجمَّدت ملامِحُها، ورأت اللعنة تُغرَسُ في جبينِها كخَتمٍ أبدي.

التفت الجدُّ إلى مجدولين فجأة، كأنَّ عينه اخترقت الزَّمن ورأتها واقفةً في زاوية الغرفة. ابتسم ابتسامةً شيطانيَّة باردة، ثم رفع يده الملطَّخة بالسَّائل الأحمر وأشار نحو الجدار الحجري خلفه، عندها اشتعلت الأرض بخطوطٍ من نار، انبثقت من تحت أصابعه كأنَّها استجابت لأمرٍ خفي. خطَّ واحدٌ متوهِّج امتدَّ ببطء حتَّى توقَّف عند رفٍّ خشبيٍّ قديم في المكتبة المظلمة، حيث تراصَّت الكتب الممزَّقة والأدوات الغريبة، وهمس لها:

- «هناك، ستجدين القلادة السوداء، يا سيِّدتي ذهبه، أخفيتُها كما أمرتِ».

ثم اشتعل خطٌّ آخر، يتلوَّى مثل أفعى ناريَّة، امتدَّ من منتصف الغرفة إلى الخارج، حتَّى وصل إلى البئر الخلفية، حيث توقَّف اللَّهبُ فجأة. كانت النار على الأرض قد تحوَّلت إلى خريطة حيَّة، تتنفَّسُ وتنبض. رفعت مجدولين يدها لتحمي وجهَها من وهجِ النَّار، بينما كان صوت الجد يتردَّدُ في الجدران:

- «القلادةُ والبئرُ كلتاهما لكِ يا سيِّدتي».

اختفى المشهدُ فجأة، وانطفأت النَّار، وبقيت الغرفة ساكنة كأنَّ شيئًا لم يكن. استيقظت مجدولين مذعورة، يغطي عرقٌ باردٌ وجهَها، ويخفقُ قلبها بعنف، تضمُّها أنين بقوَّة، وتنظرُ إليها بقلقٍ عميق:

- «لقد رأيتُه يا أنين، رأيتُ كلَّ شيءٍ بوضوح، لقد ختم زينة بختم الشَّيطان، ورسم لي بخطوطٍ ناريَّة مكان القلادة والبئر، وناداني باسم «ذهبه»».

شعرت أنين بقشعريرةٍ تجتاحُ جسدَها وهي تحدِّقُ في الجدران المظلمة. لم يكن هذا مجرَّد بيتٍ مهجور، بل مسرحًا لأحداثٍ مروِّعة لا تزالُ أصداؤُها تتردَّدُ بين جدرانه القديمة، تنتظرُ من يوقظُها من سباتها الطويل، أو ربَّما تنتظرُ ضحيَّةً جديدة تُقدَّمُ قربانًا لسيِّد الظلام والكوابيس، الملك شرهوت.

استلامُ خَتم اللّعنة ..

لم يكن الليل قد انقضى تمامًا حين جلست مجدولين متيبِّسة فوق السرير، تُحدِّقُ في سقف الغرفة الحجري، كأنَّها ما زالت عالقة في أعماق الكابوس. لم تستطع جفونُها أن تستسلم لثقل النَّوم، رغم الإرهاق الذي أنهك روحها قبل جسدِها.

جلست أنين إلى جوارِها، مسندةً ذقنها على كفِّها، تراقبُ ملامِحَ وجه صديقتها الذي يكسوه الشحوب، وعيناها تغوصان في تفاصيل حالتها، تحاولُ أن تعرف ماذا رأت في غياهب الكابوس، وكيف سرق دفء الدم من وجنتيها.

كان البيت غارقًا في سكونٍ ثقيل، لا يُسمعُ فيه إلا صوتُ خشبةٍ قديمة تتأوَّهُ تحت ثقلِ الزمن بين الحين والآخر، أو حفيفُ ريحٍ كئيبة. أمَّا الضوء الخافت الذي بدأ يتسلَّلُ من بين الشقوق الضيِّقة في الجدار، فقد ألقى بظلالِه على وجهِ مجدولين المرهق، كاشفًا عن تعبها وانطفاء بريقها.

قطعت مجدولين ذلك الصمت بحركةٍ مفاجئة، إذ اعتدلت في جلستها وأسندت ظهرها إلى الجدار الخشن، واضعةً كفَّيها على ركبتيها لتمنعَ نفسَها من الارتجاف، ثم قالت بصوت حاسم:

- «رأيته بوضوح يا أنين».

ارتجفت الكلمات وهي تخرجُ من شفتيها، لكنَّها لم تتوقَّف:

- «لقد رسم لي بخطوط النَّار طريقًا يقودُ إلى القلادة، كان يهمسُ لي بأنَّها في المكتبة، هناك خلف الجدار».

تبادلت أنين معها نظرةً طويلة لا تحملُ سوى القلق، ثم قالت متردِّدة:

- «هل أنت واثقة أنَّك تريدين الذهاب إلى ذلك المكان المظلم من البيت؟»

لكن مجدولين لم تحتج إلى جواب، لقد حسمت أمرها، والرَّهبةُ التي كانت تتسلَّلُ إلى قلبها لم تعد أقوى من النداء الذي انبعث في كابوسها.

نهضت من مكانِها ببطء، وتبعتها أنين على مضض، بخطواتٍ متردِّدة، وهي تراقِبُ صديقتَها وتخشى أن تبتلعَها ظلمةُ البيت قبل أن تصلا. وكلَّما تقدَّمتا خطوة، تصاعد صريرُ الأرضيَّة العتيقة تحت أقدامِهما، يعلنُ عن دخولِهما حدودًا لا ينبغي لأحدٍ أن يتجاوزَها. حتَّى توقَّفتا أخيرًا أمام بابٍ خشبيٍّ عريض تعلوهُ طبقةٌ كثيفةٌ من الغبار، وتغطِّيه شقوقٌ عميقة، مدَّت مجدولين يدها المرتجفة نحو المزلاج الحديدي، بينما تباطأت أنفاسُ أنين وهي تهمسُ بصوتٍ يتقطَّع من شدَّة الخوف:

- «ربما علينا أن ننتظر، هذا المكان ليس لنا».

لكنَّ مجدولين لم تلتفت إليها، ودفعت المزلاج فصدرَ صوتُ صريرٍ طويل، وانفتحَ الباب ببطءٍ ثقيلٍ، كاشفًا عن مكتبةٍ غارقةٍ في الصَّمت والغبار، وتدفَّقت رائحةٌ خانقة، مزيجٌ غريبٌ من الورق المحترق والجلود القديمة والتُّراب الرَّطب.

كانت رفوفُ المكتبة تكتظُّ بالكتب الممزَّقة والمخطوطات المتناثرة، بعضُها أسود الحواف، وبعضُها الآخر غارقٌ في غبارٍ كثيف. وفي وسط المكتبة، طاولةٌ خشبيَّةٌ عتيقةٌ متشقِّقة، تنتظرُ من يعيدُ إليها زحمةَ الأوراق والأقلام. اقتربت أنين بحذر، وقالت:

- «كأنَّ هذا الباب لم يفتح منذُ غياب الجد، وكلُّ شيءٍ هنا ينتظرُنا بصبرٍ دفين».

أمَّا مجدولين، فقد كانت عيناها معلقتين بالجدار الحجري الذي توقَّفت عنده النَّار في الكابوس. اقتربت أكثر إليه حتَّى وصلت إلى زاويةٍ معيَّنة، ورأت على الجدار حجرًا بارزًا أكثر من غيره، مدَّت يدها بحذر وحرَّكتهُ، فسقط من مكانِهِ وتبعَهُ ثانٍ ثم ثالث، حتَّى راحت الحجارة الصغيرة المتراصَّة تتداعى واحدًا تلو الآخر.

تبادلتا نظرةً صامتة، وراحتا تُزيحان ما تبقَّى بأصابع مرتعشة حتَّى انكشف تجويفٌ غامضٌ في منتصف الجدار يبتلعُ العتمة كفمٍ صامتٍ يخفي أسرارَهُ لسنواتٍ طويلة. وفي قلب ذلك التجويف الحجري، كان هناك صندوقٌ صغيرٌ يظهرُ بوضوح رغم الظَّلام، كأنَّه لا ينتمي إلى هذا الزمن. صندوقٌ خشبيٌّ أسود منحوتٌ بعنايةٍ مخيفة، تكسو سطحَهُ نقوشٌ ملتوية على نحوٍ يوحي بدهاليز أسرارِه التي لا تنتهي.

اقتربت مجدولين بخطواتٍ ثقيلة، ومدَّت يدها وسحبت الصندوق من التجويف، وقد بدا ثقيلًا لا يتناسبُ مع حجمه. قامت بوضعه على الطاولة الخشبيَّة وسط المكتبة، فقالت أنين وعيناها تتابعان الصندوق بذهول:

- «هذا هو إذًا، الصُّندوق الذي رأيتِه في كابوسِك».

مرَّرت مجدولين أصابعها عليه لتلامسَ الغطاء الذي كان باردًا كالجليد، كأنَّ برودتهُ قادمة من عالمٍ آخر. ارتعشت يدُها، لكنَّها تماسكت، وضغطت على الغطاء ببطء، فأصدر الغطاء صريرًا مخيفًا، كأنَّ الصندوقَ يئن، وفي اللحظة نفسها، تسلَّلت رائحةٌ خانقة، كأنفاس جحيمٍ حُبست داخلَهُ لقرونٍ طويلة، ثم أطلِقَت فجأة في هواء الغرفة.

رفعت مجدولين الغطاءَ ببطء، ليظهر أمامها مشهدٌ يقشعرُّ له البدن؛ في أعماق الصندوق، كان هناك قماشٌ أسود مطويٌّ بعنايةٍ مريبة، كأنَّ من وضعَهُ أراد إخفاء سرٍّ أعظم من أن يُكشف للعين.

بين ثنايا القماش، لمع خيطٌ معدنيٌّ داكن، وحين أزاحت القماش ظهرت القلادة السوداء. كانت عليها الرُّموز نفسها التي رأتها في كوابيسها والتي أشار إليها الدكتور رضوان بأنَّها قد تكونُ مفاتيحَ أو أختامًا قديمة ذات قوَّةٍ هائلة. رموزٌ تشبهُ النجوم المتساقطة أو العيون المفتوحة التي تحدِّقُ في الفراغ.

كانت ثقيلة، ينسابُ منها وميضٌ خافت، بدا سطحُها المعدني حيًّا يتنفَّسُ بهدوء.

شهقت أنين وتراجعت، بينما ظلّت مجدولين تحدِّقُ فيها بلا حراك:

- «ها أنت ذا، مفتاحُ الخلاص أو الهلاك».

خيَّم صمتٌ طويلٌ على الغرفة، وكأنَّ كلَّ شيءٍ قد تجمَّد، وحُبِسَت الأنفاس في لحظة الكشف، في انتظار ما سيأتي بعد أن استيقظَ السِّر الخطير.

كل ما مضى لم يكن إلا مقدماتٍ صغيرة..

فالبيت الآن يَفتح قلبه المظلم.

وفي أعماقه لعناكٌ أقدمُ من الزمن تَتربّصُ بمن يجرؤ

على كشفها..

الختم الكرزي

الفصل التاسع:
قلب البيت المظلم ..

الطّيف والنداء الأخير لظلِّ ذهبه ..

حين وضعت مجدولين القلادة السوداء على الطَّاولة الخشبيَّة، ازدادت البرودة كثافةً، كأنَّ شتاءً قارسًا اجتاح منتصف الصيف فجأة، أو أنَّ قلب البيت المظلم عاد لينبضَ من جديد.

تعمَّقت الظِّلال في زوايا الغرفة، تتحرَّكُ وتتراقصُ بطريقةٍ مخيفة، كأشباحٍ جاءت لتشهدَ على الحدث الجلل، وانبعثت من أرجاء الغرفة، ومن جدران البيت الحجري، رائحةٌ نفَّاذة ممزوجةٌ برائحة ترابٍ قديم.

أمام باب المكتبة، تجلَّى طيفٌ لرجلٍ عجوزٍ يرتدي مثل الملابس التقليديَّة التي ارتداها جد زينة في كوابيس مجدولين. لم يكن له ملامحُ واضحة تمامًا، فقد بدا كدخانٍ رماديٍّ كثيف يتشكَّل ويتغيَّر باستمرار مع حركة الهواء الخفيفة، أو كسرابٍ يتراقصُ في حرارة الصحراء، لكنَّ حضورَهُ كان قويًّا ومخيفًا على نحوٍ لا يوصف، حضورٌ يبعثُ على الرَّهبة ويجمِّدُ الدَّم في العروق، كأنَّهُ عَبَر بوَّابات الموت وعاد منها يحملُ رسالةً.

تجمَّدت مجدولين وأنين في مكانهما، والرعب يشلُّ أطرافهما ويربطُ ألسنتهما. لم يكن هذا كابوسًا أو هلوسة أو خيالًا مريضًا.

ظهر لهما شبحُ جد زينة في وضح النهار، وفي قلب هذا البيت الملعون الذي تفوح منه رائحة الموت والجنون والأسرار القديمة.

اقترب الطيف من الطاولة، وخرج صوتُه خشنًا كريحٍ تتكلَّمُ عبر جدارٍ مهجور:

- «حضرتِ، لآخُذ القلادة يا سيِّدتي، قد حان وقت المواجهة».

ثم رفع يده الضبابيَّة المرتعشة وأشار نحو الخارج، حيث الفناءُ المظلِم، وقال:

- «هذه هي البئر، بوَّابة العالم السفلي».

ثُم ثبَّت عينيه الفارغتين على مجدولين، قبل أن يضيفَ بجملةٍ مقطوعةٍ بالندم:

- «لم يبقَ لي -يا سيِّدتي- سوى طيفي هذا، أحومُ به حول بيتي، لأتذكَّر حسرتي دومًا».

ثم همس كلماته الأخيرة:

- «أعيدي لي ما سُلِبَ منِّي».

وبدأ الطَّيف يتلاشى ببطء، ويتفتَّتُ في هواء المكتبة تاركًا وراءَه برودةً تخترقُ العظام، ورائحة بَخُورٍ حادَّة علِقَت بالجدران.

سيطر صمتٌ طويلٌ على مجدولين وأنين، دون أن تجرُؤ إحداهما على الحراك، بينما خيَّم السُّكون على المكان بعد أن تلاشى الطَّيف، كأنَّ الجدران قد كتمت أنفاسها.

ولم يخترق هذا الصمت سوى نحيبِ الجدَّة التي وقفت مواربةً خلف الباب، ترتجفُ وهي تشهدُ ما يجري، وتخشى أن يمتدَّ الظِّل إليها ويبتلعهَا، وقد رأت طيف زوجها يتجسَّدُ في الدَّاخل. كان نحيبُها غريبًا، كأنَّها لا تبكي وحدها، بل ينوحُ معها طيفٌ آخر في الظِّل.

وقعت عينُ مجدولين على القلادة السَّاكنة فوق الطاولة، بينما كانت كلمات الطَّيف تتردَّدُ في أذنها كصدًى يرتدُّ من كهفٍ عميق.

«البيت والبئر، والبوَّابة والقلادة، وما سُلِبَ لا يردُّ إلا هناك».

عندها أيقنت مجدولين أنَّ ثمة رابطًا خفيًّا ووثيقًا بين القلادة والبئر، لا بُدَّ من كشف سرِّه الدَّفين إذا أرادت أن تفكِّك رموز هذه اللَّعنة التي طالت كلَّ من عبر نحوها أو سمع بها.

قرَّرت أنها ستتوجَّهُ برفقة أنين مع بزوغ الصَّباح الباكر نحو البئر، لعلَّهما تقتربان من الحقيقة، أو تلمسان أوَّل خيطٍ في مواجهة شرهوت.

الحارس عند البئر ..

في صباحِ اليوم التالي، خرجت مجدولين وأنين نحو الفناء الخلفي بخطواتٍ ثقيلة، كان الطريق إلى البئر كالسَّير نحو مصيرٍ محتوم، وكلُّ شجرة حماط تحيطُ بهما بدت كجدار يحجبُ الضَّوء ويمنعُ عنهما الأمان.

وعندما وصلتا إلى البئر، تصاعدت الرَّائحةُ العفنة والرُّطوبة الثَّقيلة من جوفها المظلم، فأصبح الهواءُ حولَها خانقًا، يبعثُ على الدُّوَار. أمسكت مجدولين بالقلادة السوداء، ونبضُها يتسارعُ بين أصابعها، حتَّى بدا الأمرُ كأنَّها تحملُ قلبًا لا يخصُّها.

تردَّدت صورة الطَّيفِ وتذكَّرت كلماته التي ما تزال ترنُّ في رأسها:

- «البئر، البوَّابة، القلادة».

لكنَّ خوفها من أن يكونَ هذا فخًّا جديدًا نصبه شرهوت لها لم يفارقها. هل تُقدِمُ على فتح البوَّابة الملعونة، وتنفِّذُ ما تراهُ في كوابيسها؟

وقبل أن تُجيبَ على نفسِها، انشقَّت لحظةُ الصَّمت بضحكةٍ عالية، حادَّة جعلت الدم يتجمَّدُ في العروق. التفتت مع أنين، فإذا بالخادمة «كرزة» تقفُ عند مدخل الفناء.

تعلو وجهها ابتسامةٌ عريضة، وتتوهَّجُ عيناها بلون الدم، بينما يتموَّجُ شعرُها المنفلتُ حولَها برياحٍ شيطانيَّة، قالت بصوتٍ غليظٍ يحملُ أثر سيِّدها:

- «لقد جئتِ أخيرًا يا مجدولين، أو يا ذهبه، كما يناديك سيِّدي».

اقتربت منها بخطواتٍ بطيئة وواثقة، وصوتُها يجلجلُ بسخرية:

- «أوه، أحقًّا توهَّمتِ أنَّك قادرةٌ على تحدِّي ملك الظَّلام؟

هل حسبتِ أنَّك ستفلتين من قدرك المحتوم؟

تلك القلادة التي تتشبَّثين بها ليست لكِ...

إنَّها المفتاحُ الذي سيحرِّرُ سيِّدي، ليعودَ ويستردَّ ملكَهُ وامرأتَهُ، وستسلِّمينها له بيدك، طوعًا أو كراهيَةً، قربانٌ على مذبح حبٍّ أبديٍّ، لا يزولُ ولا يُهزم».

اندفعت كرزة فجأة نحو مجدولين لانتزاع القلادة، فصرخت أنين من خلفِها بكلِّ ما أوتيت من قوَّة:

- «احذري!»

لكنَّ اندفاع كرزة كان أشبه بعاصفة لا تُقاوم، فارتطمت أنين بجدار الفناء الحجري وسقطت أرضًا بقوَّة، وارتجَّ جسدُها من الصدمة، حتَّى غاب وعيُها تدريجيًّا وخمدت حركتُها تمامًا.

أمسكت مجدولين بالقلادة بكلِّ ما بقي لها من قوَّة، بينما ظلَّت أنين على الأرض بلا حراك، تاركةً مجدولين تواجه مصيرها وحدها.

وقبل أن تصلَ كرزة إلى غنيمتها، اهتزَّ الفناءُ بأكمله، وخرج من بين أشجار الحماط كائنٌ غريب، يبدو كحارسٍ أسطوريٍّ خرج من أعماق الأرض نفسها.

كان طويل القامة، نحيلًا على نحوٍ غير طبيعي، يرتدي ما يشبهُ درعًا قديمًا مصنوعًا من جذوع أشجار الحماط المتشابكة ومن الحجارة السوداء اللامعة.

يضعُ على رأسِه خوذةً عظيمة بقرونٍ مقوَّسة، لم تكن ملامحُهُ واضحة، فوجهُه كان مغطًّى بأوراق الشَّجر، لا يظهرُ منه إلا عينان باردتان تشعَّان بضوءٍ أخضر قاسٍ.

يحملُ في يده اليمنى رمحًا طويلًا مصنوعًا من خشبٍ أسود كخشب الأبنوس، وفي طرفه شفرةٌ حجريَّة حادَّة ومسنَّنة، قادرة على اختراق أيِّ درع، أو على شقِّ روح أيِّ كائن يعتدي على أرضه.

وقف هذا الكائن بين كرزة ومجدولين، صامتًا كجدارٍ لا يمكن تجاوزه، لم ينطق بكلمة، لكنَّ حضوره يوحي بقوَّةٍ قديمة بدائيَّة خطيرة لا يمكنُ تجاهلها.

تجمَّدت كرزة في مكانها للحظة، وظهر على وجهها تعبيرٌ يشبهُ الصَّدمة أو الخوف. لم تكن تتوقَّعُ هذا التدخُّل، ولم تعرف من هذا الحارس الغامض الذي ظهر فجأة من العدم، والذي يبدو أنَّه لا ينتمي إلى عالم شرهوت. قالت بصوتٍ يتخلَّله الخوف والدهشة:

- «من... من أنت أيُّها الدخيل؟

ابتعد عن طريقي، هذه أوامر سيِّدي الملك شرهوت، ولا أحد يجرؤ على عصيانه أو الوقوف في طريقه!»

لم يرد عليها الحارس الغريب، بل ظلَّ ثابتًا كصخرة صلبة من الغرانيت، بينما بقي رمحه الأسود الطويل موجَّهًا نحو كرزة من جهة ونحو مجدولين من طرفه.

لم يُظهر ولاءَه لأحد، كأنَّه جاء ليحمي سرًّا أقدم من شرهوت نفسه. وفي تلك اللحظة اضطربت البئر، وارتفع من أعماقِها صوتٌ مرعبٌ عميق أشبه بزئيرٍ مكتوم، عندها أدركت مجدولين أنَّ ما يحدُث يتجاوزُ شرهوت، والمعركة التي تنتظرُها لم تعد مقصورةً على مواجهته وحده، بل أصبحت صراعًا بين قوَى قديمة لا تعرف إذا كانت ستقفُ معها أم ضدَّها.

المواجهة عند الحافَّة ..

وقف الحارس العنيد، ذلك الكيان الغامض، كسدٍّ منيع أو كتمثالٍ أبدي نُحِتَ من الصَّمت، فاصلًا بين كرزة ومجدو لين. لم يكن بحاجةٍ إلى كلمة، فصمتُه كان أفظع من أيِّ تهديد، وأقوى من أيِّ صرخة. وعيناه المتَّقدتان بضوءٍ أخضر بارد، تحملان نظرة حارسٍ أزليٍّ نذرَ روحَهُ لحماية سرٍّ موغلٍ في القدم، أو عهدٍ مقدَّسٍ لا يجرُؤ أحد على تدنيسه.

رائحته كالتُّراب القديم والطحالب النديَّة الممزوجة برائحة أوراق الحماط العطريَّة، كأنَّها تجسيدٌ لروح الغابة العميقة التي لم تطأها قدمُ إنسان منذُ دهور. تجمَّدت كرزة للحظة، وارتسمت على وجهها ملامحُ من الذهول والحيرة:

- «من أنت أيُّها الدَّخيل؟»

صرخت مجدَّدًا بصوتها العميق الذي يحاولُ أن يستعيدَ نبرة السلطة والتحدِّي، لكنَّهُ كان يحملُ هذه المرَّة رجفةً خفيفة، كوترٍ مشدودٍ على وشك الانقطاع.

- «هذا الأمرُ لا يعنيك! إنَّه بيني وبين هذه الفانية التي تحملُ في عروقِها صدًى لقوَّة سيِّدتي ذهبه، ابتعد عن طريقي، وإلا أحلتُك إلى رماد بأمرٍ من سيِّدي شرهوت».

لكنَّ الحارس لم يرد، بل بقي ثابتًا كجذع شجرةٍ عميقة الجذور، وما يزالُ رمحُه الأسود الطويل الذي يشبهُ غصنَ شجرةٍ متحجِّرة موجَّهًا نحوها بتحذيرٍ صامت، كأنَّه يقولُ بصمته المطبق:

إنَّ كلماتكِ لا تعني لي شيئًا، ووجودي هنا له معنًى أعمق وأخطر مما تتصوَّرين.

استغلَّت مجدولين اللحظة من التوتُّر المشحون بين كرزة والحارس الغامض، هذه الهدنة غير المتوقَّعة التي فرضها ظهور هذا الكائن الجديد

الذي بدا أنَّه لا ينتمي إلى أيٍّ من العالمين.

نظرت إلى أنين، التي كانت قد بدأت تستعيدُ وعيها بصعوبة بالغة وهمست لها بسرعة وصوتُها يتذبذبُ بين الخوف والترقُّب:

- «علينا أن نتحرَّكَ ونفعلَ شيئًا قبل أن ينتهي كلُّ شيء!»

وفي تلك اللحظة، قرَّرت كرزة -التي بدأ صبرُها ينفد- أن تتجاهل الحارس الغامض مؤقَّتًا،

وتركِّز على هدفِها الرئيس الذي أرسلها من أجله سيِّدها، القلادة السوداء التي لا تزال في يد مجدولين.

انقضَّت مرَّةً أخرى نحو مجدولين بسرعة الريح، متفاديةً ببراعة وخفَّة لا تصدَّق، الرُّمحَ الذي بدأ الحارس يحرِّكه ببطء ليشكِّل حاجزًا بينهما، كأنَّها تعرفُ كيف تتحرَّك في مثل هذه المواجهات، أو تدرَّبت عليها لقرون.

صرخت مجدولين وتراجعت خطوةً إلى الوراء حتَّى التصق جسدُها بالحافَّة الحجريَّة للبئر، وشعرت ببرودتها تنفذُ إلى عظامِها كتحذيرٍ صامتٍ من السقوط في ظلمتها.

كانت الفتحة خلفها مباشرة، تنفثُ برودةً قارسة تتسلَّلُ إلى العظم، وتفوحُ منها رائحةُ عفنٍ ثقيلة، كأنَّها صعدت من قاع مقبرةٍ منسيَّة. ومن أعماقِها أخذَ يتردَّدُ صوت أنفاسٍ غليظة، كأنَّ وحشًا جاثمًا هناك يستعدُّ لأن يبعثَ من سباته. بينما بدا فمُها المظلم كفوهة جحيم، أو كبوابة تُفتح ببطء.

أمسكت أنين بذراع كرزة بيدٍ مرتجفة، في محاولةٍ يائسة منها لإبعادها عن مجدولين، لكنَّ كرزة التي استمدَّت قوَّةً إضافيَّةً من البئر، ومن الطَّاقة المظلمة المُتصاعِدة منها، دفعتها مرَّةً أخرى بعنف، فسقطت أرضًا، وارتطمَ رأسُها بحجرٍ حادٍّ أفقدها الوعي، وسال الدَّمُ من جرحٍ صغيرٍ في صدغها، يرسمُ خطًّا أحمر على التراب الجاف، قربانًا صامتًا لوحشٍ خفي.

- «أنين!»

صرخت مجدولين بذعر، وهي ترى صديقتها راقدةً على الأرض، تنزفُ بلا حراك، فاجتاحها اليأسُ المطلق للحظة، وشعرت أنَّ كلَّ شيءٍ قد انتهى، وأنَّها بقيت وحيدةً في مواجهة هذا الشَّر الذي لا يرحم، والذي لا يمكنُ إيقافه. لكنَّ منظر أنين الهامدة، والحارس الغامض الواقف كجدارٍ صامت لا تُعرفُ نواياه، والقلادة السوداء التي أخذت تبثُّ حرارةً في يدها، والقلادة النحاسيَّة التي اشتدَّت برودتُها على عنُقِها حتَّى غدت كبحرٍ متجمِّد، كلُّ ذلك أيقظ في مجدولين قوَّةً لم تعلم أنَّها تملِكُها، قوَّة اليأس الأخير، وإرادة من لا يملكُ شيئًا ليخسره سوى حياته.

- «لن تأخذيها!»

صرخت مجدولين في وجه كرزة، وصوتُها يحملُ نبرة تحدٍّ لم تسمعْها هي نفسها من قبل، نبرةَ امرأةٍ قرَّرت أن تُقاتِل حتَّى الرَّمق الأخير، حتَّى لو كان ذلك يعني موتها المحتوم.

- «لن أسمح لكِ بتسليم هذه القلادة إليه، وتدمير عالمي، وسلب أرواح بريئة أخرى».

قهقهت كرزة بصوتٍ عالٍ مجلجل، كمن يسخرُ من تهديدٍ لا يرقى إلى أكثر من مزحة طفلٍ يرتجف أمام الظلام.

- «أنتِ لا تفهمين شيئًا أيَّتها الحمقاء، لا تدركين حجم القوَّة التي تتعاملين معها، ولا المجد الذي ينتظرُكِ إذا أطعتِ سيِّدي. هذه القلادة هي مفتاحُ مجده، وطريقُ عودة سيِّدتي ذهبه الحقيقيَّة التي ستحكمُ معه هذا العالم والعوالم الأخرى إلى الأبد، وأنتِ مجرَّدُ وعاءٍ فارغ، دمية جميلة سيستمتعُ سيِّدي بتحطيمها بعد أن ينتهي من استخدامِها، وسيلقي بكِ في غياهب النسيان، ولن يتذكَّركِ أحد».

في خضَمِّ هذا الصراعِ المحتدم، لاحظت مجدولين أنَّ الحارسَ الغامضَ لم يتدخَّل بطريقةٍ مباشرة، بل كان يراقبُ الموقفَ بعينيه المتوهِّجتين، كأنَّهُ يختبرُ قوَّتها أو ينتظر اللحظة المناسبة للتحرُّك، أو لعلَّهُ ينتظرُ إشارةً من جهةٍ أخرى لا يعلمُها أحد.

ولاحظت أيضًا أنَّ قوَّة كرزة كانت تتزايدُ بوضوح كلَّما اقتربت من البئر، كأنَّها تستمدُّ منها طاقةً خبيثة، وأنَّ هالةً حمراء خافتة كضبابٍ دموي، بدأت تحيطُ بجسدِها، وتجعلُ ملامحها تبدو أكثر شيطانيَّة ووحشيَّة، وتجعلُها تتحوَّلُ إلى كائنٍ آخر أمام عينيها.

تمتمة الظّلام المتوارثة ..

في لحظةٍ خاطفة باغتت كرزة مجدولين بضربةٍ قويَّة على يدها مستخدمةً نصلًا أسود مسنَّنًا يغطّي ذراعَها، ويلمعُ بوميضٍ دمويٍّ ينضحُ بطاقة العالم السفلي.

صرخت مجدولين من الألم، وأفلتت القلادة السوداء من قبضتها المرتعشة، وتدحرجت فوق الأرض الحجريَّة المتشقِّقة بسرعة، حتَّى توقَّفت عند حافَّة البئر، على بعد أمتارٍ قليلة من السقوط في جوفها المظلم.

صرخت مجدولين وهي تحاولُ اللَّحاق بها، لكنَّ كرزة انطلقت بقوَّةٍ شيطانيَّة ودفعتها للخلف، والتقطت القلادة قبلها، رفعتها عاليًا، وارتسمت على شفتيها ابتسامةُ النَّصر، وأطلقت ضحكةً عاليةً ارتدَّت أصداؤُها في الفناء كناقوسٍ أسود يعلنُ بداية عهدٍ جديدٍ من الظلام:

- «لقد حصلتُ عليها أخيرًا!»

صرخت كرزة وعيناها تتوهَّجان بضوءٍ دمويٍّ متصاعد:

- «الآن سيكتمِلُ كلُّ شيء، وسيكونُ المَلِكُ ممتنًّا لي إلى الأبد، سأرتقي إلى عرشِ العالم السُّفلي كما وعدني سيِّدي شرهوت!»

تقدَّمت نحو فوهةِ البئر ورفعت القلادة السوداء فوقَها، وبدأت تتمتمُ بكلماتٍ غريبة، بلغةٍ خشنة وعميقة، تنبعثُ منها رائحةُ الموت. لغة الظلام ذاتها التي سمعتها مجدولين في كوابيسها من جدِّ زينة والتي يجبُ أن لا ينطقها البشر.

وبينما كانت تتمتم، بدأ جسدُها يتشوَّه، احمرَّت عروقُها كالجمر، وتصلَّبت يدُها وتحوَّلت إلى مخالبَ حادَّة، وبدت أسنانُها أطول وأكثر حدَّة، حتَّى صار وجهُها انعكاسًا مشوَّهًا للّغةِ التي استدعتها.

اهتزت البئرُ بعنف، وامتلأ الهواءُ بأصواتٍ ثقيلةٍ تشبهُ أرواحًا محبوسةً منذُ قرون، تردِّدُ مع كرزة تعاويذها الملعونة. انبثق ضوءٌ أحمر قوي من الأعماق،

كأنَّ عينًا هائلة فتحت جفونَها بعد سباتٍ طويل، وأطلقت هواءً حارًّا يحملُ رائحة دماءٍ قديمة متعفِّنة.

بدأت العاصفة تتشكَّل، وأخذت دوَّامةٌ هوجاء تسحبُ كلَّ ما حولها من حصًى وأوراقٍ يابسة، وحتَّى أنفاس الواقفين قربها. وفي داخل الدوَّامة، ظهرت ظلالُ وجوهٍ مشوَّهة ومعذَّبة تتلوَّى وتصرخُ، تستعدُّ للصعود مع سيِّدها القادم.

في تلك اللحظة، شعرت مجدولين بالقلادة النحاسيَّة على عنُقِها تزدادُ ثقلًا، حتَّى صارت كحجرٍ يسحبُها نحو الأرض. امتدَّت برودتُها في صدرها، بينما تصاعدت أنفاسُها المتقطِّعة، والعرقُ الباردُ يقطرُ من جبينها.

لم تستطع تمييز ما إذا كان هذا الثقل لعنةً جديدة أم إنذارًا لقوَّةٍ محبوسة، لكنَّها أدركت أنَّ القلادة تخفي سرًّا يتهيَّأ للانفجار.

ضحكت كرزة وارتفع صوتُها مشحونًا بالخبث:

- «ها هي البوَّابة تُفتحُ على مصراعيها، وسيِّدي الملك شرهوت آتٍ ليستعيدَ حقَّه الذي طال انتظاره».

واندفعت نحو مجدولين، تحاولُ سحبها إلى قلبِ الدوامة، وهي تصرخُ بصوتٍ يحملُ صدى شرهوت ذاته:

- «اذهبي إليه يا ذهبه، هذا هو قدرُك المحتوم، اتركي هذا العالم لنا، نحنُ أسياد الظَّلام الحقيقيين!»

أنا من سيكتبُ نهاية قصتي حين ينطفئ النُّور،

ويفتحُ الباب الأخير...

الختم الكرزي

الفصل العاشر:
المواجهة عند البوابة

بوَّابة السقوط ووصيَّة الظِّلال..

في تلك اللحظة الحرجة، وبينما كانت مجدولين على وشك أن تُسحبَ إلى داخِل البوَّابة المفتوحة على الجحيم والتي تتصاعدُ منها أصواتٌ مرعبة وصرخات كائناتٍ أسطوريَّة تحتضر.

تحرَّك الحارسُ الغامض أخيرًا، ذلك الكيان الذي ظلَّ واقفًا كجزءٍ من الغابة، أشبهَ بشجرةٍ انتصبت منذُ ألفِ عام ولم تنحنِ. غرس رمحَهُ في الأرض بضربةٍ واحدة، فاهتزَّ الفناءُ من حولِهم واندفع بسرعةٍ لا تدرِكُها عين، كأنَّ الرِّيح تحرَّكت داخله، وبرمحِه المسنَّن الذي يشبهُ جذع شجرة نُقشَت عليها أختامُ العصور، ضربَ ذراعَ كرزة التي كانت ترفعُ القلادة نحو فم البئر.

ضربةٌ هائلة جعلت القلادة السوداء تطيرُ في الهواء، كنجمٍ متمرِّدٍ خرج من مدارِ الظَّلام، وتدحرجت حتَّى توقَّفت بين قدمي الحارس.

لم يلتفت إلى كرزة، بل انحنى ببطء والتقط القلادة، ثم مشى نحو مجدولين التي كانت تقفُ بصعوبةٍ على الأرض المتصدِّعة تحت قدميها. وقف أمامها وعيناها تتَّسعان من الخوف والدَّهشة، لكنَّه قال لها بصوتِه العميق الذي بدا كزلزالٍ يسحقُ الأرض:

- «هذه أمانةُ سيِّدتي ذهبه، سأسلِّمُك إيَّاها يا مفتاح نجاتها، اذهبي حيث لا تستطيعُ الظِّلال أن تكذب».

مدَّ يده ووضعَ القلادةَ السوداء في كفِّ مجدولين، وأخرج من جيبِه العتيق كيسًا حريريًّا كرزيَّ اللون، يحملُ عطرًا غريبًا، ثم قال:

- «وهذه أسماءُ الظِّلال، نبتةٌ لا تنمو إلا من صدوعِ الزمن، هي الوحيدة القادرة على إضعاف لعنة شرهوت، لا تستخفِّي بها، تحسَّسي أوراقها بدمك عند الحاجة وستفهمين».

وعندما لمست مجدولين القلادة السوداء والكيس العتيق، اجتاحَها دفء قلبٍ غريب، كأنَّ نبضًا آخر استقرَّ في جسدِها، روحٌ نُفِخَت فيها حين تسلَّمت

الأمانة، لكنَّ البوَّابة لم تنتظر، ووصلت قوَّةُ السَّحب إلى ذروتها.

انزلقت الأرضُ من تحت قدميها، وبدأت تسقطُ نحو قاع الظَّلام، صارخةً بصوتٍ أجش:

- «أنين لا تتركيها تأخذُني!»

التفت الحارس بصمت، فرأى أنين تتلوَّى من الألم، وجهها المغطَّى بالدِّماء لا يزالُ حيًّا رغم العاصفة. مدَّ يده القويَّة، وحملها كمن يحملُ جسدًا مقدَّسًا، حتَّى تلامست يدُها بيدِ مجدولين التي نظرت إليه تحاولُ أن تفهم لكنَّ الحارس قال جملةً واحدة، حملت معها ثِقلَ الأسطورة كلّها:

- «اذهبي إلى عالم الظَّلام، كي تكسري لعنته عن سيِّدتي ذهبه».

ثم أرخى قبضته، وأسقطهما معًا، تمسكُ إحداهما بيدِ الأخرى، بينما أُغلِقَت البئرُ كفمٍ ابتلع آخر لقمةٍ لديه. ارتطم رأس مجدولين بسطحٍ صلبٍ بطريقةٍ مؤلمة، وفقدت الوعي للحظات، وعندما فتحت عينيها بصعوبة، وجدت نفسَها في مكانٍ غريب، لم تره من قبل في كوابيسها، يصوِّر ما تتخيَّلهُ عن العالم السفلي، مظلمٌ وضبابي، لا يشبهُ عالم البشر.

كانت السماء فوقها بلونِ الكرز الدَّاكن، أو ربَّما لم تكن هناك سماءٌ على الإطلاق، بل سقفُ كهفٍ عملاق لا نهاية له، تتساقطُ منه قطراتٌ من ماءٍ أسود لزج، والأرضُ تحتها لزجة وباردة، كأنَّها جلد وحشٍ ميِّت، أو طينٌ أسودُ تنبعثُ منه رائحةُ كبريت ممزوجةٌ بملوحة بحرٍ عميق.

تسمعُ أصواتًا بعيدةً تتردَّدُ في الأجواء، كأنَّها همساتٌ لأرواحٍ معذَّبة، نظرت حولها بذعر، فرأت أنين طريحةً على بعد خطواتٍ قليلةٍ منها، فاقدةً للوعي، ووجهُها شاحبٌ كالموتى، تسيلُ دماؤها من صدغها. جرَّت نفسها نحوها وحاولت إيقاظها:

- «أنين! أنين أرجوكِ استيقظي، هل أنتِ بخير؟»

نادت مجدولين بصوتٍ يرتجف، ودموعُها تنهمرُ بغزارة من شدَّة الرُّعب الذي تملَّكها. فتحت أنين عينيها ببطء، وتأوَّهت من الألم.

- «أنا... أنا هنا، أعتقدُ أنَّني بخير، ولكن أين نحن يا مجدولين؟

ما هذا المكان المرعب؟ هل متنا ودخلنا الجحيم؟»

كانتا في وادٍ سحيق، أو في قاع كهفٍ عملاق، تحيطُ بهما جبالٌ سوداء مسنَّنة تشبهُ أنياب وحشٍ أسطوريٍّ يصرخُ قبل موته بلحظات.

رأت مجدولين ما يشبه قلعةً مظلمة، مشيَّدة من زجاجٍ بركاني، ينبعثُ منها ضوءٌ أحمر خافت ومقلق، وقبل أن تتمكن من استيعاب الموقف أو التفكير في الهروب، وقع بصرُها على مشهدٍ جعل الدم يتجمَّدُ في العروق. كانت والدة زينة وشقيقُها سالم معلَّقين في الهواء، مكبَّلين بسلاسل سوداء غريبة، تتكوَّنُ من ظلالٍ متجمِّدة تتراقصُ ببطء. مغشيًّا عليهما، تُستنزفُ حياتهما ببطء، كقربانٍ يُقدَّمُ لوحشٍ متعطِّشٍ للدماء.

كانا الطُعم الذي تحدَّث عنه شرهوت والذي استدرج به مجدولين إلى عرينِه، وقلبه المظلم الذي لا يعرفُ الرَّحمة.

كانت مجدولين لا تزال تمسكُ بالقلادة السوداء، مفتاح الخلاص أو الهلاك والتي بدأت تشعُّ بضوءٍ أحمر خافت، تستجيبُ لوجودِها في هذا العالمِ الملعون، أو تستعدُّ لدورِها الأخير في هذه المسرحيَّة المأسويَّة. وفي يدها الأخرى، كان الكيسُ العتيقُ يُطلِقُ رائحة بَخُورٍ عطرة، كأنَّها من زمنٍ آخر، تزدادُ تفتُّحًا مثل زهرةٍ محرَّمة لا تعبقُ إلا في عالم الظلام.

عندما تنادي النبتة سيدة البوابة ..

- «أهلاً بكما في مملكتي أيَّتها الفانيتان الطموحان اللَّتان تجرَّأتا على دخولِ عريني الذي لم يخرج أحدٌ منه حيًّا».

جاء صوتُ شرهوت العميق والقوي من كلِّ حدبٍ وصوب، يحمِلُهُ الضَّبابُ والهواءُ المحيط بهما. كان صوته ممتدًّا عبر قرونٍ من السُّلطةِ والظَّلام والعزلةِ القاتلة، ثم تجسَّد شرهوت أمامهما بصورةٍ مغايرةٍ عمَّا رأتهُ مجدولين في كوابيسها المبتورة، أو تنكُّرِه السَّابق بهيئةٍ بشريَّة مخادعة، لقد ظهرَ أمامَهما بكامِلِ جبروته الشيطاني.

كان طويلًا، يجعلُ من يقفُ أمامه يشعرُ كأنَّه قزم. يرتدي درعًا أسود لامعًا، مغطًّى بحراشف مخلوقٍ بحريٍّ انبثق من أعماق المحيطات. يعكسُ زجاجٌ بركانيٌّ مصقول وهج الدَّم المتوهِّج في جدران القلعة. تاجُهُ مكلَّلٌ بكلِّ ألوان اللَّيل، تحترقُ فيه نجومٌ ميِّتة بنيران الجحيم، وعيناهُ جمرتان متَّقدتان، تسكنُهما قوَّةٌ مطلقة وجنونٌ صامتٌ ينذرُ بانفجارٍ لا يُتوقَّع.

جلس على عرشِه المنحوت من تجاويف صخريَّة داكنة، كأنَّه ينبثقُ من قلب الأرض نفسها، وفي يده صولجانٌ أسود كقطعةٍ من ليلٍ متجمِّد، تعلوه ياقوتةٌ حمراء تنبضُ كقلبٍ مغمورٍ بالدِّماء والأسرار. قال بنبرةٍ تخترقُ العظام:

- «لقد وفَّرتِ عليَّ عناء إحضاركِ بالقوَّة يا ذهبه، ويبدو أنَّكِ أحضرت معك هديَّةً قيِّمة أبحثُ عنها منذ زمن، وستعيدُ لي كلَّ ما فقدته».

أشار إلى القلادة السوداء التي لا تزالُ بين يدي مجدولين وقد بدأت تشعُّ ضوءًا مظلمًا استجابةً

لوجوده، ثم لوَّح بيده، فظهرت كرزة، واقفةً بجانبه، منهكة، لا تزالُ عيناها المكسورتان تبحثان

خلفه بوجل، تنتظرُ ظهور الحارس الغائب:

- «يا سيِّدي، حاولت أن أجلبَ لك القلادة، لكنَّ الحارس، ذلك الملعون..».

قاطعها شرهوت بصوتٍ كالسيف:

- «اصمتي أيَّتها الخادمة الغبيَّة، لقد أنهيت دورك، اذهبي وعودي إلى ظلامِك».

لكن في اللحظة الأخيرة، التقت عيناها بعيني مجدولين، وفيهما رجاءٌ صامتٌ ودمعةٌ محبوسة، قبل أن يغمرها الضباب وتختفي، ثم نظر شرهوت نحو مجدولين بنظرةٍ تحملُ برد القرون السرمديَّة، ورغبةً قويَّة بالتملُّك والتلبُّس:

- «الآن اكتمل كلُّ شيء، القلادة السوداء، ومفتاح الأختام القديمة، وبوَّابة العوالم المنسيَّة، وهذا الوعاء الجديد الذي يحملُ صدى روحها... هي النَّقاء الأخير، والوعاء الأنسب، سأعيدُ ذهبه إلى مجدها، وسنحكم العوالم معًا إلى الأبد».

مدَّ يده نحو مجدولين، ليمسِكَ القلادة السوداء ويأخُذَ القلادة النحاسيَّة من عنقها، لكن في اللحظة التي لامست فيها أصابعُه أطراف الطاقة المنبعثة من القلائد، حدث ما لم يكن في حسبانه، الكيسُ العتيق الذي أعطاه الحارس لمجدولين، اشتعلَ عبيرُه فجأة، كأنَّ النَّار قد أيقظت أعشابًا نائمة منذ قرون.

بدأت رائحة «أسماء الظِّلال»، النبتة النَّادرة، تنتشرُ في المكان، وتعبثُ بالهواء كجرسٍ مدفونٍ تحت الأرض، تقلبُ التَّوازن وتستفزُّ الظِّلال. شهق شرهوت شهقةً حادَّةً لم يعرفها من قبل:

- «مستحيل، هذه خيانة... ذلك الحارس الملعووووون!»

تراجع للخلف خطوة، وعيناه تتَّسعان وهو يشيرُ إلى النبتة بغضب، ويداهُ ترتجفان. نظر إلى القلادة النحاسيَّة على عنُقِ مجدولين، وقد بدأت تتوهَّجُ بوميضٍ أبيض فضِّي، تستيقِظُ من سُباتٍ عميق. شعرت مجدولين بأنَّ

الكيس العتيق بين يديها قد بدأ ينبضُ كقلبٍ صغير يريدُ أن يحيا، واستحضرت كلمات الحارس:

- «المسي أوراقَها بدمك عند الحاجة، وستفهمين».

فتحت الكيس بخفَّة، ومدَّت أصابعها المرتجفة إلى داخله، وفي اللحظة نفسها وخزتها أشواكٌ دقيقة، تغطِّي أوراق النبتة الخفيَّة في الداخل. شعرت بلسعةٍ حادَّة اخترقت جلدها، فانساب الدَّمُ دافئًا بهدوء، كأنَّه كان ينتظرُ تلك اللحظة ليُسفك، لكنَّها لم تصرخ، بل أطبقت جفنيها، وهمست بصوتٍ مشحونٍ بالإيمان والرَّعشة:

- «بسم الله على قلبي حتَّى يسكُنَ ويطمئن».

حين لامست قطراتُ دمِها أوراقَ النبتة داخِلَ الكيس العتيق، بدأ التحوُّل، ارتجفت الأوراق الدَّاكنة، وتوهَّجت بنورٍ رماديٍّ غريب. ارتوت من دمها كأنَّها تشربُ سرًّا أزليًّا ينتظرُها منذ عقود.

خرجت من النبتة همهمةٌ خافتة، كنشيدٍ قديمٍ يبعثُ في المكان رهبةً ونفخة نصرٍ غامض، وفي اللَّحظة نفسِها ارتفعت القلادة النحاسيَّة على عنق مجدولين، وتوهَّجت بقوَّة حتَّى انفجرت إلى شظايا مضيئة، لم تجرح أحدًا، بل ذابت في الهواء كملحٍ يتلاشى في البحر. وفي ذلك الوميض تجلَّى طيفُ ذهبه، حارسةِ الدَّوامات والكنوز الخفيَّة داخل المحيطات.

كانت كما رأتها مجدولين في حلم الشَّاطئ الأسود، لكنَّها هذه المرَّة لم تعد خيالًا، بل غدت وجودًا حيًّا، متجسِّدًا من نورِ البحر وعمق الماء، ومن ذكرى حبٍّ لا يُمحى في قلب شرهوت. وجهُها قويُّ الملامح، لكنَّهُ حزينٌ من جرحٍ قديمٍ لا يزالُ ينئن. قالت بصوتٍ يشبهُ هدير المحيطات وارتطام أمواجها:

- «لن تأخُذَها، لقد انتهى عهدُك، لن أسمح لك بتلويث روحٍ أخرى بريئة بهوسِك وجنونِك المدمِّر، يا عشقي الدموي».

تراجع شرهوت خطوةً بذهول دون أن يشعر، ونظر إلى ذهبه ورأى شبح قدره. الكارثة التي بحث عنها لقرون عادت على هيئة من كانت أقرب إليه من قلبه، أمَّا مجدولين فقد وقفت مذهولة والدَّمُ ما يزالُ يقطرُ من إصبعها ويروي أرض الظَّلام. امتلأت السماء الدَّاكنة داخل القلعة بهالةٍ رماديَّة، وامتزجت القلادتان في وهجٍ دوَّار، نذيرَ نهايةٍ أو بداية.

أنفاس أسماء الظلال ..

وقف شرهوت مذهولًا أمام طيف ذهبه الحقيقيَّة، وقد تجمَّدت أنفاسُه في صدرِه كأنَّه ابتلع صاعقةً من نور. جحظت عيناه الموشَّحتان بالسَّواد، يعجزُ عن تصديق أنَّ من أحبَّها وكرهها لدرجة الجنون واللعنة، تقفُ الآن أمامه، متجسِّدةً في هيئةٍ نورانيَّة، تكشفُ عن ضعفه، وتشعلُ جرحَهُ القديم بلا رحمة.

كان جسدُه الأثيري يرتجفُ كبُرجٍ من لهبٍ يتصدَّعُ تحت وابلٍ من المطر، لكنَّهُ في الوقت ذاته كان أسيرَ كبرياءَ مسمومٍ لا يسمحُ له أن ينحني أو يعترِفَ بالهزيمة أمام عينيها، تينك العينين اللَّتين طالما كانت نظرتهما قادرةً على زلزلةِ أقوى قراراتِه الشيطانيَّة. مزيجٌ من العِشقِ والحنين المشتعلِ بالحِقد غمر ملامِحَه، حتَّى ارتسم على وجهِهِ قناعٌ لا يُرى فيه سوى انهيارٍ داخليٍّ لكيانٍ تاه في ظلماتِه، ووجَدَ أمامه النَّور الذي كان سبب خلاصِه وعذابِه معًا.

- «ذهبه..».

قالها بصوتٍ بركانٍ على وشك الانفجار، يحملُ في طيَّاتِه قرونًا من المرارة والخيانة والغضب المكبوت، صوتٍ ثقيلٍ كأنَّهُ يبحثُ عن منفذٍ بعد أن ظلَّ حبيس الصَّمتِ لقرون.

- «حتَّى وأنتِ روحٌ حبيسةٌ في قطعة نحاس، تعترضين طريقي؟

لقد تركتِني في هذا الظلام وحيدًا، أتخبَّطُ في بحرٍ من الحزن والجنون، هل أنتِ هنا لتَسُدِّي الطريقَ أمامي؟»

ارتدَّ صوتُه بحدَّة في أركان القاعة، فردَّت ذهبه بصوتِ أمواجٍ عاتية في ليلةٍ عاصفة:

- «أنا لستُ روحًا حبيسةً كما تزعم، أخفيت قوَّتي عليك دهورًا حتَّى يأتي وقتُ مواجهتك من جديد».

عندها التقت عيناها بعيني مجدولين للحظةٍ خاطفة، كأنَّهما مرآتان لروحٍ واحدة امتدَّت عبر الزمن. وفي تلك النظرة، تسرَّبت إلى جسدِ مجدولين شذراتٌ من قوَّةِ ذهبه. دفءٌ بهيبةٍ غامرة، جعل قلبَها يخفقُ بقوَّة غير مألوفة، وروحَها تتوهَّجُ كأنَّها استعادت جزءًا من نفسها المفقودة.

شعرت مجدولين أنَّ ما يربطها بهذا الطَّيف ليس مجرَّد قلادة، بل خيطٌ أزليٌّ من روحٍ واحدة، يمدُّها بما تحتاجُه لتصمد. عندها أدركت أنَّ القلادة النحاسيَّة لم تكن لعنةً كما تظن، بل وعاء نجاةٍ وحصنًا يحتوي وعي ذهبه وقوَّتها الحقيقيَّة. قوَّةٌ انتظرت قرونًا لتجدَ مُضيفًا قويَّ الإرادة، نقيَّ القلب، قادرًا على مواجهة شرهوت وتحقيقِ ما عجزت عنه.

- «لن توقفيني هذه المرَّة!»

صرخ شرهوت وهو يرفعُ صولجانَهُ المتوهِّج بضوءٍ أحمر دمويٍّ، يشعُّ بحرارةٍ خانقة، وتتصاعدُ منه أبخرةٌ سوداء كأنَّها أنفاسُ شياطين غاضبة.

- «معي المفتاح، ها هو بيد خادمتي كرزة التي استغلَّت ذهول هذه الإنسيَّة البائسة وانتزعت القلادة من يدها الضعيفة. أرأيت يا ذهبه؟ حتَّى ضعفها يخدمُني، والآن كلُّ الطرق تقودُ إليَّ وحدي».

عندها أدركت مجدولين بدهشةٍ مريرة أنَّ القلادة لم تعد معها، فتساءَلت في داخلها كيف أفلتت من قبضتها، وهي التي أمسكتها بكلِّ ما تملكُ من روحٍ وإرادة.

لم تحتج الكثير من الوقت لتفهم أنَّ صدام الطَّاقات العاتية يربكُ حواسَّها، ويخدِّرُ وعيها، فامتدَّ سحرُ شرهوت الخبيث كخيوطٍ خفيَّة انتزعت منها تماسُكَها، وجعلتها لا تدركُ تلك اللَّحظة الفاصلة، ابتسم شرهوت ابتسامةً وحشيَّة، وصاح:

- «ومعي الوعاء الجديد الذي سيحملُ روحَكِ كاملةً، ويعيدُكِ ملكي إلى الأبد».

ثم أمر كرزة أن تجلب له مجدولين، فانطلقت كالعاصفة نحوها، لكن بمجرَّد اقترابها اشتعلت أنفاس «أسماء الظِّلال» في المكان، فكوَّنت هالةً غير مرئيَّة انفجرت بقوَّةٍ ارتدَّت على الاثنتين معًا.

سقطت كرزة أرضًا بعنف، تتلوَّى تحت وطأة تلك القوَّةِ الغامضة، وفي الوقت نفسِه اندفعت مجدولين إلى الوراء، وارتطم جسدُها بالأرض وارتجَّ رأسُها بشدَّة، فأرخت الكيس من بين يديها، وبدأ ينتفضُ بعنف، ويقذفُ رائحة الدَّم الممزوجة بتربة العشبة النَّادرة «أسماء الظلال»، فصارت أنفاسُها أكثر ثقلًا، تغمرُ المكان بعبقِ بَخُورٍ خانقٍ يزيدُ من ارتباك شرهوت ويضعِفُ لعنته أكثر فأكثر.

تراجع خطوةً إلى الوراء دون إرادته، وارتعشت اليدُ التي تحملُ صولجانَهُ، فخفت جزءٌ من لهيبِهِ الأحمر وانكمش الدخان الأسود من حوله، كأنَّ العشبة قد غرست مخالِبَها في أعماقِ لعنته، وبدأت تنهشُها ببطء. دوى صوته غاضبًا، وأطلق زفرةً كأنَّها نحيبُ وحشٍ جريح، أدركت ذهبه حينها أنَّ العشبة قد لبَّت نداءَها، وأنَّ أنفاسها اندفعت لتشارِكَها في إخمادِ قوَّة شرهوت واختراق جدار لعناتِه المنيع.

انتشرت أنفاسُ العشبة في المكان، فأيقظت أنين من غيبوبتها تشهقُ بقوَّة، وفتحت عينيها المرتبكتين، وشعرت أنَّ ما بداخل الكيس يناديها، كأنَّه اختارها لتكملَ المهمَّة.

نهضت متماسكة رغم ارتجافها، والتقطت الكيس وضمَّتهُ إلى صدرِها، ثم ركضت نحو والدة زينة وشقيقها سالم المعلَّقين بالسلاسل السوداء. فتحت الكيس، وفتَّتت محتواه بأصابِعها وسكبت المزيج فوق الأقفال وهي تهمس:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم»

صرخت السلاسل كأرواحٍ شريرة تُطرد، ثم تساقطت دفعةً واحدة واختفت. شهقت الأم وراحت تتحسَّسُ نبض قلبِها العائد، بينما فتح سالم عينيه ببطء، وتمتم بصوتٍ يكسوه الألم:

«زينة... هل عدتِ لنا؟»

ارتجاف القلادتين، والفداء الأخير ..

اشتعل الفضاء من حولهم، كأنَّ السَّماء نفسَها انقسمت إلى نصفين، نصفٌ يغلي بسوادٍ كثيفٍ يزفِرُ دخانًا خانقًا ورائحة كبريتٍ محترق، ونصفٌ يتوهَّجُ بخيوطٍ ذهبيَّة تخرجُ من قلب ذهبه كأنَّها نجمةٌ أُطلِقَت من سجنها القديم.

بلغت معركةُ النُّور والظَّلام ذروتها، واستمدَّت ذهبه قوَّتها من الطَّاقة النقيَّة التي انبعثت من مجدولين، أمَّا شرهوت فقد بدأ يستعيدُ عظمته، إذ خمد أثرُ العشبة النادرة، وراح الظَّلامُ يلتفُّ حوله كعباءةٍ شيطانيَّة، يمدُّه من أرواح المعذَّبين بفيضٍ لا ينتهي.

في قلب تلك العاصفة، كانت مجدولين مسجَّاةً على الأرض، تحت وطأة الهالة غير المرئيَّة التي انفجرت من «أسماء الظلال». شعرت بثقلٍ جاثِمٍ فوق صدرِها، كأنَّ ألف قبرٍ انطبقَت عليها دفعةً

واحدة، وخيِّل لها لوهلة أنَّ الحياة تنسحبُ من أطرافِها ببطءٍ قاسٍ، وأنَّها ستبقى حبيسة هذا الظَّلام الأبدي.

لكن بين ذلك الصَّباب الأسود، انبثقَ في عقلِها صوتٌ صافٍ، شبيهٌ بجرسٍ بعيد:

- «لا تدعيه يستخدمُها، وإلا صرتِ سجينةً له إلى الأبد!»

كان ذلك صوتَ ذهبه، يخترقُ الصراع، ويتردَّدُ في رأسِها كأنَّهُ نفحة حياةٍ في مقبرةٍ منسيَّة، ثم جاءَها صوتٌ آخر. كان هشًّا في البداية، ما لبث أن تصاعدَ حتَّى صار عاصفةً من رجاءٍ وبكاء:

- «مجدولين انهضي، لا تتركيني!»

إنَّهُ صوت أنين، يلتصقُ بقلبِها كخيطٍ من حرير يمنعُها من الغرق. تدفقَّت الصُّور في ذهنها:

عيون طفليها، ويد أنين المرتجفة، ووهج القلادتين، كأنَّ روحها تتسلّقُ جدارًا أملسَ من ظلام، تبحثُ عن منفذٍ صغيرٍ يطلُّ على النُّور، ثم انبثقٌ صوت ثالثٌ من أعماقها:

- «انهضي الآن، وإلا فلن يبقى شيءٌ لتنقذيه!»

فتحت عينيها فجأة، كمن خرجَ من أعماقِ محيطٍ مظلمٍ إلى نور اللَّه الواسع، وضعت يدها على قلبِها الذي استعاد إيقاعه، ثم تمتمت بشفتيها المرتجفتين:

- «بسم اللَّه على قلبي، حتَّى يسكُنَ ويطمئن».

لاحظت أنَّ القلادة النحاسيَّة على عنُقِها بدأت تخفت وتتصدَّع كأنَّها سلَّمت آخر أنفاسِها.

رفعت عينيها، فرأت من بعيد كرزة ممدَّدة على الأرض، والموت لا يزالُ يحيطُ بوجهِها، وبجانب يدها المرتجفة، كانت القلادةُ السَّوداء تتوهَّجُ بلهيبٍ كرزيٍّ محترق، تنبضُ كقلبِ شيطانٍ يستعدُّ للانفجار. تقدَّمت مجدولين نحوها بخطواتٍ متعثِّرة، وانحنت لترفعَ القلادة، قبضت عليها بكلِّ قوَّتِها، فارتجَّ جسدُها كأنَّها أمسكت بجمرةٍ مشتعلة.

صرخت وهي توجِّهُ نظرها إلى طيف ذهبه المشرق وسط العاصفة:

- «كيف أستخدمُها؟»

جاءَها الردُّ بصوتٍ يتفاوتُ بين التحذير والرجاء:

- «ادمجي النُّور بالظَّلام يا مجدولين، اجمعي القلادتين على قلبك، لكن احذري، فالثَّمنُ باهظٌ، قد ينكسرُ شيءٌ فيك إلى الأبد».

لم يكن هناك وقتٌ للتفكير، رفعت مجدولين القلادتين فوق عنُقِها، واجتمعتا بين يديها المرتجفتين، فانطلقَ وهجٌ هائلٌ منهما، نصُفه أبيض كالبرق يشقُّ السَّماء، ونصفه أسود كالفحم المشتعل في قلب العدم.

اجتمع النُّور والظّلام في نقطةٍ واحدة، وانغرسا داخل صدر مجدولين الذي كاد يتفتَّت، لكنَّها صرخت بكلِّ ما في روحها:

- «بسم اللَّه الرحمن الرحيم، بسم اللَّه على قلبي، حتَّى يسكُنَ ويطمئن».

اهتزَّ العالم من حولها، وانفجرت دائرةٌ من الضَّوء الأسود والأبيض معًا، كفجرٍ داكنٍ يشرقُ في قلب الجحيم. أطلق شرهوت صرخةً مزَّقت طبقات العوالم السفليَّة:

- «لا تتركيني يا ذهبه..».

تشقَّقَ جسدُه الأثيري، وتدفَّقَ منه لهيبٌ أسود كثيف، وحاولَ أن يرمِّمَ نفسه، ويعيدَ تجميعَ أوصالِه الممزَّقة، لكنَّ الضوء كان يلاحقه كالقدر.

مدَّ يديه ليمسِكَ بمجدولين، فابتلع الضَّوءُ أصابعه أوَّلًا، ثم ذراعيه، حتَّى تحوَّل نصفُه الأعلى إلى عمودٍ من دخان. لم يستسلم، جاهد كوحشٍ يحتضر، ورفع صولجانه للمرَّة الأخيرة، وغرزه في الأرض ليوقفَ الانهيار، فارتجَّت المملكة بأكملها، وانهارت جدرانُها كأنَّها دمٌ وحبرٌ مسكوبان في الماء.

انطلقت صرخات آلاف الأرواحِ المأسورة -التي كانت وقودَ قوَّته- من أعماقِ السجون الأثيريَّة، تطلبُ الحريَّة، فمزَّقت قيوده وانهالت عليه كالسياط. وفي اللَّحظة الأخيرة، قبل أن تبتلعَهُ الهوَّة، نظر إلى مجدولين نظرةً تحملُ كرهًا وافتتانًا معًا، نظرة عرشٍ يُسلبُ منه بالقوَّة والإيمان، وقال بصوتٍ متقطِّع:

- «ستعودين إليَّ، لأنَّ من أصابته لعنتي لا ينجو أبدًا».

ثم انفتحت الأرض من تحته، وابتلعته مع صرخاتِه المدوية. لم يكن سقوطًا عاديًّا، بل هبوط طاغيةٍ يتشبَّثُ بالهواء حتَّى آخر نفس، ويلقي بظلِّ وعدٍ غامضٍ أنَّ النهاية لم تُكتب بعد.

في تلك اللحظة، تقدَّمت كرزة بخطواتها الأخيرة، جسدُها يرتعشُ، وعيناها تستعيدان صفاءَهما الأوَّل، كأنَّ السِّحر الذي كبَّلها انكسر مع زوال سيِّدها.

اندفعت نحو مجدولين وذويها بكلِّ ما بقي في جسدِها من عزم، وفتحت ذراعيها كدرعٍ بشري، تصدَّعت عروقُها من شدَّة الضَّوء لكنَّها تماسكت.

- «لن أترككم تضيعون مثلي».

تمتمت بصوتٍ متهالك، ثم أطلقت صرخةً أخيرة مزجت فيها دموعها وروحها، فشقَّت بجسدِها بوَّابةً من النُّور احتضنت الجميع بداخلِها. أمَّا ذهبه، فقد أضاء نورُها للحظةٍ أخيرة، ثم التفتت إلى مجدولين بعينين دامعتين:

- «شكرًا، لقد حرَّرتني».

يمتزجُ نورُها بالهواء كأنفاسِ صباحٍ بارد، يتبدَّدُ مع أوَّل ضوء، تاركًا وراءَه فراغًا هائلًا. تفتَّتت القلادة السوداء في يد مجدولين، وصارت رمادًا يتطايرُ مع الريح، أمَّا القلادة النحاسيَّة فقد انقسمت إلى نصفين وسقطت على الأرض.

انهار العالمُ السفليُّ من حولِهم، وغرقت مملكةُ شرهوت في العدم. ومع سقوط كلِّ جدار، وذوبان كلِّ صخرة في العتمة، كان جسدُ كرزة يتلاشى ببطء، وصوتُها الأخير يهمسُ في أذن مجدولين:

- «لا تكرِّري ضياعي، أنقذي نفسك ومن تحبِّين».

ثم اختفت تمامًا، كأنَّها ما عادت إلا لتكفِّر عن ماضيها بفدائِها الأخير، بينما بقي صدى صرختها معلَّقًا في الهواء، وشاهدًا على كلماتِها الأخيرة.

وحين انشقَّت بوابة النور، وجدوا أنفسَهم ممدَّدين في فناء البيت تحت شجرة الحماط العتيقة، التي مدَّت أغصانها فوقهم كأذرع أمٍّ حنون تحتضنُ أبناءَها العائدين من غيابٍ طويل.

كلَّ ما دُفِنَ في العتمة سينبتُ يومًا في صدر من تحمَّلت

النُّورَ واللَّعنة معًا.

احذري يا مجدولين، فالختمُ لم يكسر، بل اختارَكِ ليُولدَ

من جديد.

الختم الكرزي

الفصل الحادي عشر:
الثَّمن والبداية الجديدة

العودة الناقصة، وبذرةُ الشَّر الأولى ..

حين سكن الصراخ في عالم الظَّلام، كان أوَّلَ ما شعرت به مجدولين هو دفءُ الأرض تحت قدميها، والضَّوءُ الذي يتسلَّلُ من بين أوراق شجرة الحماط الضخمة التي ظلَّلتهم كأمٍّ تضمُّ أبناءها في حضنها.

كان النَّسيم خفيفًا، محمَّلًا برائحة التُّراب الرطب، وندى الفجر العذب الذي يعلن أنَّه في هذه اللحظة بالذات انتهى كلُّ شيء وبدأت الحياة من جديد. اجتمعت حولهم وجوهٌ غريبة؛ رجالٌ ونساءٌ من أهل القرية، التفُّوا بهلعٍ ودهشة فوق رأس مجدولين وأنين التي ما تزالُ غائبةً عن الوعي، وذراعاها متشابكتان كأنَّها تقاتلُ شيئًا حتَّى اللحظة الأخيرة.

تعالت همساتٌ متقطِّعة، وصلواتٌ خافتة، عيونٌ دامعة تتناقلُ ما لا يُقال، وتخشى أن تنطقَ بما رأته من رعبٍ لا يُفسَّر.

وعلى بُعدِ خطواتٍ قليلة، كان بعض الأهالي يحاولون إنعاش والدة زينة وشقيقها، وقد عادا بعد غيابٍ طويلٍ وغامضٍ عن القرية، لم يخلِّف سوى ظلِّ مريبٍ يثقلُ القلوب ويثيرُ الفزع.

وارتفع نحيبُ النساء بحرقة، تتساقطُ دموعهن كأنَّ ما يحدث تشييعُ موتى، لا ترحيبٌ بأحياء.

جلست مجدولين متَّكئةً إلى جذع الشَّجرة، وإحساسٌ غريبٌ يجتاحُ جسدَها؛ حرارةٌ تتَّقدُ في عينيها وحواسِّها جميعًا، كأنَّها اشتعلت وأضاءت. تجاوزت الرؤية العاديَّة إلى البصيرة، وتخطَّت أذنها حدود السَّمع إلى ما وراء الهمس.

أصبحت مجدولين تُبصِرُ ما لا ينبغي أن يُرى، أطيافًا تتحرَّكُ خلف الوجوه، تتسلَّلُ بين الأهالي وتتمسَّحُ بخطواتهم المثقلة بالفقد. وحين اجتمع النَّاس حول والدة زينة وشقيقها، تبرَّع بعض رجال القرية بمرافقةِ مجدولين وأنين حتَّى منزلهما في جدَّة، وتولَّى شابٌّ قيادة سيَّارة أنين خلفهم.

تحرَّكت السيَّارات في موكبٍ واحد يشقُّ سكون الفجر، لكنَّ طريق العودة لم يعد هو ذاته في عيني مجدولين، كانت الرؤيةُ عندها واضحةً حدَّ الرعب، أشجارٌ تنحني كأنَّها تهمسُ بأسرارِها، وغربانٌ تحومُ فوق الرؤوس ثم تختفي في العدم، امرأةٌ بثوبٍ أبيض تسيرُ على حافَّة الطريق بلا أثر، ووجهُ طفلٍ يطلُّ من نافذة مهجورة قبل أن يتبخَّر في الهواء، لكنَّها لم تنطق بكلمة، بل وضعت يدها المرتجفة على قلبِها وأطبقت جفنيها، تخفي رؤيتها على صديقتها، وقد صار قلبُها أكبر من الخوف، وأصلب من الشَّك.

أمَّا أنين، فقد جلست في سيَّارتها كتمثالٍ شاحب، يمضي جسدُها معهم، بينما روحُها ما تزالُ عالقةً هناك، في عالم الظلال.

لم تفارق أذنيها ضحكات شرهوت الملتوية ولا صرخاته التي تمزقت في معركته الأخيرة مع ذهبه.

توقَّفت السيَّارات أمام منزل مجدولين، وتقدَّم الشاب لإعطاء أنين مفاتيح سيَّارتها، لكنَّها انتزعتها منه بقوَّةٍ وارتباك، دون كلمة شكر، وتوجَّهت مسرعةً نحو مقعدِ القيادة، تتلفَّت يمينًا ويسارًا، وارتجافُ أصابِعها يفضحُ توتُّرها وهي تشغِّلُ المحرِّك، ثم انطلقت كأنَّها تبحثُ عن خلاصِها الوحيد في بيتها الذي تحوَّل في ذاكرتِها إلى خريطةِ نجاةٍ وسط خرابٍ لا ينتهي.

أمَّا مجدولين، فما أن دخلت بيتها، حتَّى رأت صغيريها يركضان نحوها، ودموعُهما تختلطُ بابتسامةٍ بريئة. احتضنتهما وعانقتهما بشدَّة كأنَّها عبرت سبعة أبحرٍ لتعودَ إليهما. لم تبكِ، اكتفت بإغلاق عينيها واستنشاق رائحتهما، مدركةً أنَّها لا تزالُ حيَّة، وربَّما بدأت للتوّ.

ثم احتضنت زوجَها بعمقِ الحبِّ الذي لم يغفُ عن قلبِها، وشمَّت رائحته التي طالما أشعرتها بالأمان، كأنَّها لا تزالُ طفلته المدلَّلة التي يحرصُ على حمايتها من أيِّ نسمةِ.

حمدت اللَّه على عودتها سالمةً من معركةٍ كانت هي بطلتَها وأسطورتَها التي لا تُهزم.

وفي تلك الليلة حين استلقت على سريرها، جاءَها الحلم، ظهرت «ذهبه» في شكلها النُّوراني، واقفةً وسط بستانٍ من الكرز الأسود، تشعُّ عيناها بحكمة قرون، وقالت لها بهدوء:

- «اطمئنِّي، فكلُّ من حولك بخير، لكنَّك أنتِ يا مجدولين، ما زلتِ هدفًا، القوى القديمة لم تنتهِ منك، أنتِ لستِ نهاية الحكاية، بل بدايتها».

ثم اقتربت ذهبه في الحلم تتلمَّسُ جبهة مجدولين للحظةٍ قصيرة، كأنَّها تريدُ أن توقِظَ شيئًا نائمًا في داخلِها، ثم همست لها بوصيَّتها:

«احذري من زهرة الكرز، ما قُدِّمَ لكِ لم يكن هديَّة وداع، بل بذرة».

استفاقت مجدولين مذعورةً، يتصبَّبُ العرقُ البارد منها، ويدُها تتحسَّسُ أثر لمسة ذهبه على جبينها، فقد شعرت بها وأحسَّت ببرودتِها. فقرَّرت أن تذهبَ إلى العيادة في الصَّباح الباكر، لتتحقَّق بنفسها: هل الزهرة ما زالت كما تركتها؟

أم أنَّ الحلم كان نذيرًا لشيءٍ قد وقع بالفعل؟

دخلت العيادة مسرعةً شاردة، ولم تُلقِ التحيَّة على سكرتيرتها «وعد» التي وقفت مذهولةً أمام تلك الطَّاقة الغريبة التي دخلت مع رئيستها، حاولت أن تستوقِفَها بقلق:

- «يا دكتورة، الحمدُ لله على سلامتك، هل أساعدُك بشيء؟»

لكنَّ مجدولين أقفلَت باب مكتبها خلفها، وتوجَّهت مباشرةً إلى أعمقِ أدراج مكتبها؛ ذلك الدرج الذي تركت فيه اللِّفافة القاتمة التي وضعتها بين يديها السيِّدة «وشمة»، حين أهدتها زهرة الكرز السَّوداء، وأتبعتها بابتسامةٍ مريبةٍ، وعبارةٍ أشدُّ غموضًا:

- «إنها ليست إلا هديَّة وداع».

⁂

مدّت يدها ببطء وسحبت اللِّفافة، ثم تراجعت مصدومة! القماشُ تغيَّر ولم يعد كما تركته، بل أصبح متهالكًا متفحِّمَ الحواف، كأنَّهُ لامسَ نارًا خفيَّة في غياهب الدرج، يكسوه أثرُ مادَّةٍ لزجة متيبِّسة، وقد انطبعت عليه علاماتٌ غريبة، أشبهُ بآثارِ بصماتٍ غير بشريَّة.

وبمجرَّد أن لامست أطرافُ أصابِعِها القماش المحترق، انبعثت منه رائحةُ كبريتٍ حادَّة ممزوجة برائحةِ رماد مظلم، كأنَّ الزهرة قد احترقت في بُعدٍ آخر، ثم اندلع وهجٌ مفاجئٌ وخافِتٌ من اللِّفافة، كوميضٍ جمرٍ أزلي، والتصقَ بمعصمِها.

لهيبٌ خفيٌّ اشتعلَ في جلدِها، وأصبحت تتلوَّى من الألم، وهي تراقبُ رموزًا سوداء أشبه بتلك المنقوشة على القلادة تظهرُ بوضوح فوق جلدِها وتزحفُ ببطءٍ نحو ساعدِها كأنَّها ثعبانٌ أسود يحاولُ التسلُّل إلى أعماقِها.

كانت تحترقُ ولا تشتعل، تشهقُ ولا تصرُخ، تدرِكُ ولا تفهم، ثم كأنَّ الأمر لم يكن، تلاشت الرموزُ تدريجيًّا، وانطفأت كما ظهرت، واختفت آثارُ الحرق.

علمت مجدولين بكلِّ جوارِحِها أنَّ شيئًا ما دخلَ جسدَها، ظنَّت أنَّه اختفى، لكنَّهُ في الحقيقة بدأ يتغلغلُ فيها بصمت، كأنَّ الزهرة قد اختارت أن تترُكَ خلفَها لعنةً معلَّقة في جسدِها تبعدُها أكثر عن الطمأنينة التي تتوقُ إليها.

وضعت يدها فوق اللِّفافة كأنَّها تختِمُها بِصَمتِها، تهمسُ في قلبها وتردِّدُ ذكرَها الذي يُطمئنُ قلبَها بكلماته:

- «بسم اللَّه على قلبي، حتَّى يسكُنَ ويطمئن».

لكنَّها فهمت أخيرًا أنَّ ما فُتِحَ لن يُغلق، والشَّر حين يُزرَع، لا يتوقَّفُ عن النموِّ المحرَّم.

عزلة في وجه الظِّلال، ووعودٌ مؤجَّلة ..

بعد أن اكتشفت مجدولين أنَّ الزهرة قد اختفت، ولم يبقَ منها سوى أثرِ لعنةٍ قديمة، مرَّ على قلبِها اسمٌ واحد فقط، أنين.

قرَّرت الاتِّصالَ بها على هاتفها المحمول، لكنَّ من أجاب عليها لم يكن صوت أنين الدافئ، بل صوتًا محاصرًا بالخوف، ممزوجًا بالبكاء الذي مزَّق نبراته:

- «أهلاً يا مجدولين... أنا والدةُ أنين، هاتفُها أمامي، لكنَّها ترفضُ أن تستخدمه، ولا ترغبُ في التحدُّث إلى أحد، منذ عودتها ليلة أمس من تلك القرية المشؤومة التي قالت إنَّها سترافقُكِ إليها لأمرٍ يخصُّك، لكنَّها لم تعد كما عهدتها، لقد رفضت أن تفصِحَ لي عن هذا الأمر، وقالت إنَّهُ يخصُّ العمل فقط... ومع ذلك، منذ تلك اللحظة شعرتُ أنَّ شيئًا ما قد استنزف روحَها.

لم تعد تأكُل ولا تشرب، يملأُ الصمتُ غرفتها كأنَّه يطمسُ العالم من حولها، وربَّما أنت الوحيدة القادرة على كسرِ هذا الصمت.

أرجوك يا ابنتي، تعالي بسرعة، أنين بحاجة إليك».

أغلقت مجدولين الهاتف، وغادرت العيادة متَّجهةً إلى بيت أنين، ونبضاتُ قلبِها تسابقُ سرعة سيَّارتها. وحين وصلت فتحت لها أمُّ أنين بوجهٍ يُقطرُ همًّا وخوفًا لا يُحتملان، أمسكت بذراع مجدولين بقوَّة، وهمست لها برجاءٍ يعصرُ قلبها:

- «أرجوكِ أعيدي لي ابنتي، إنّها ليست كما كانت، هناك شيءٌ يطبقُ على صوتها، ويسرِقُها منِّي».

ثم أشارت نحو غرفة ابنتها بصمت، وعادت إلى كرسيِّها الهزّاز، كمن يفرُّ من حقيقةٍ لا يريدُ أن يواجهها.

طرقت مجدولين الباب برفق، فلم تجبها أنين، إلا حين سمعت صوتها الذي بدا كصوت أمان يدخلُ عالمَها المقلق.

تقدَّمت بخطًا ثقيلة، وفتحت باب غرفتها الغارقة بعتمةٍ لا يشقُّها سوى خطوط رفيعة من ضوء الشَّمس التي تسلَّلت بخجلٍ عبر شقوقِ ستائر النَّافذة لتشاركَها عزلتَها بكلِّ هدوء، ثم قالت بصوتٍ أجش:

- «تفضَّلي يا مجدولين، لعلَّ دفء حضورِك يضيءُ شيئًا من هذا الظَّلام الذي سكنني منذُ تلك الليلة، ما زال صوتُه هنا، لا يريدُ أن يغادر رأسي ولو للحظة».

تقدَّمت مجدولين بخطواتٍ مرتجفة، كأنَّ ركبتيها لم تعودا قادرتين على حملها حين نظرت في وجه أنين، لكنَّ ذلك البريق الذي لم ينطفِئ في عينيها، حتَّى في أحلك لحظاتِها، كشفَ عن هويَّتها فورًا، إنَّها أنين كما عهدتها، مصدرُ قوَّتِها وأملِها الذي لا يزول.

رفعت أنين رأسَها ببطء، وعندما تلاقت عيناها بعيني مجدولين همست بصوتٍ مشحونٍ بالحرقة، كمن يحاولُ إخمادَ نارٍ تلتهمه:

- «لا تُحمِّلي نفسك ذنبًا يا صديقتي، أنا من اخترتُ أن أرافقكِ في طريقك لفكِّ لعنة شرهوت عنك، بكامِلِ وعيي، وهذا الألمُ الذي ينهشُني هو الثمن».

ثم مدَّت يدها المنهكة من شدَّة الارتجاف وأطبقتها على يد مجدولين، وقالت بإصرارٍ راسخ:

- «سأقاوم، وسأعودُ كما كنت، بل أقوى. عشبةُ أسماء الظلال اختارتني لأنَّني قويَّة، أنا لا أهرب، بل أحتاجُ إلى عزلةٍ مؤقَّتة فقط، لاستعادة نفسي».

تركت يد مجدولين، وعادت لصمتِها الذي يرافِقُ نظراتِها المشدودة إلى ما وراء الأمل، لكنَّ مجدولين ببصيرتها التي اكتسبتها من عالم الظِّلال، رأت أنَّ هناك ظلًّا في غرفتها يشدُّها نحوه بصمتٍ قاتل، فتحدَّثت إليه دون صوت:

- «ارحل عنها، ما تريدُه ستجدُه عندي، أنا من تحمِلُ صدى النور والظَّلام في جسدها».

ثم غادرت غرفة أنين، وطمأنت أمَّها أنَّها تحتاجُ لبعضِ الوقت وستعودُ كما كانت، بل أفضل، ووعدتها أنَّها لن تتركَ صديقتها في هذه المحنة، وستعاودُ زيارتها لاحقًا.

عادت مجدولين للعيادة، وهي تجرُّ معها ألمها وخوفها على صديقتها أنين، وكلماتها التي لم تفارقها: «سأعود كما كنت، بل أقوى».

استقبلتها وعد بوجهٍ يفيضُ قلقًا، وقلبٍ مكتظٍّ بالأسئلة، لكنَّ مجدولين مرَّت بجانبها وهي صامتة، فنادتها وعد بنبرةٍ مستعجلة:

- «يا دكتورة، لقد حاول الدكتور رضوان الاتصال بكِ مرارًا، لكن هاتفك هنا، لقد تركتِه في المكتب حين غادرتِ مسرعةً، وعندما لم تجيبي، اتصل على هاتف العيادة، وقال إنَّه يريدُ أن

يطمئنك على عائلة زينة، وسيتولَّى رعايتهم في المركز الطبي للأمراض النفسيَّة، وسيتابعُ حالتهم حتَّى الشِّفاء بإذن الله، وطلب أيضًا أن تزوريه أنت وأنين في مكتبته، كي تخبراه عن كلِّ تفاصيل رحلتكما إلى بيت جدّ زينة».

تجمَّدت نظراتُ مجدولين نحوها، وعلمت في داخلِها أنَّه لا مفرَّ لها من الذَّهاب إلى مكتبة الدكتور رضوان، لكنَّها ستؤجِّلُ الأمر حتَّى تستعيدَ أنين توازنها النفسي، لذلك تجاهلت الأمر الآن، ودخلت مكتبها وأغلقت البابَ خلفَها دون أن تنبِسَ بكلمة.

جلست وهي تعلِّقُ نظراتِها بسقفِ المكتب، وهمست لنفسها:

- «إذا كان الجميعُ يتداعون من أثرِ تلك الظِّلال فلماذا ما زلتُ متماسكة؟

هل ما زلتُ مجدولين حقًّا، أم أنَّني مجرَّدُ طيفٍ يستعدُّ لينتمي إلى عالم الظِّلال؟»

بين وجوهٍ متناوبة وصوتٍ يبحثُ عن ذاته ..

عادت مجدولين تدريجيًّا إلى حياتِها المهنيَّة، وأخذت تستعيدُ روتينها المعتاد في استقبال الحالات المرضيَّة. جلست خلف مكتبها تتأمَّلُ الملفات المصفوفة أمامَها، كأنَّها تذكيرٌ بأنَّ رسالتها في الحياة ما زالت مستمرَّة، رغم عودتها من العاصفة.

مدَّت يدها وأخذت ملف الموعد التالي، وكان يخصُّ حالة فتاةٍ تُدعى «ندى»، ضغطت زرَّ مكتب سكرتيرتها وعد، وطلبت منها أن تدخلها.

وما هي إلا لحظات حتَّى انفتح الباب بخفَّة، لتدخُلَ فتاةٌ عشرينيَّة شاحبةُ الملامح، نحيلةُ الجسد، غارقةُ العينين في قلقٍ متواصل.

جلست بصمتٍ على الكرسي المقابل، وشبكت أصابِعها المرتعشة فوق حجرها، ثم رفعت رأسَها ببطء وقالت بصوتٍ متقطِّع:

- «أنا ندى، لكنَّني لا أتذكَّرُ يوم أمس ولا قبله، يقولون إنَّني كنتُ أضحكُ وأخرجُ وأتحدَّثُ كعادتي، لكنَّني لا أذكرُ شيئًا، كأنَّ شخصًا آخر أخذ مكاني».

تأمَّلت مجدولين وجه الفتاة وأدركت أنَّ الأمر ليس مجرَّد قلقٍ أو اضطرابٍ عابر، بل كان هناك انكسارٌ داخليٌّ لا يُرى، انقسامٌ صامت يسكنُ خلفَ نظرةِ ندى. بدأت بكتابة ما لاحظتهُ على دفتر التقييم الذي بين يديها:

- «فقدان ذاكرة انشقاقي، سلوكيَّات غير مدركة، إقرارٌ بتصرُّفاتٍ طبيعيَّة سابقة،

تلميحٌ لذات بديلة».

رفعت بصرها من جديد، ولاحظت ارتعاشة الأصابع، وذبذبة النَّظرة، والطَّريقة التي ضمَّت بها يديها إلى صدرِها كأنَّها تستنجدُ بشيء يسكن داخلها. لم تكن ندى وحدها في هذه الغرفة، همست مجدولين في داخلها:

- «هناك أحدٌ آخر هنا، ينتظرُ فقط أن يُدعى».

ثم مالت للأمام قليلًا، ونظرت في عينيها مباشرةً، وسألتها بصوتٍ ناعمٍ محمَّل بالحنان والحذر:

- «ندى، هل تسمعين صوتًا في رأسِك أحيانًا؟

يختلفُ عن صوتك، لكنَّه مألوف، يُخبرُك بما يجبُ أن تفعليه، أو يقفزُ حين تخافين، ليحميك؟»

تردَّدت ندى لوهلة، كأنَّها تلامسُ شيئًا خلف الكلمات:

- «ربَّما تحاولين حمايتها، أليس كذلك؟

أعرف أنَّك تسمعينني الآن، أنتِ هنا، خلف عينيها».

وفجأة، ارتسمت على وجه ندى ابتسامةٌ غريبة، امتدَّت ببطء كأنَّها لا تخصُّها، رفعت رأسَها وثبَّتت نظرتها على مجدولين، وخرج صوتُها حادًّا وخشنًا:

- «اسمي سارة، ندى ضعيفة، وأنا أحميها».

سكتت مجدولين لثوانٍ، تراقبُ هذا التبدُّل الصريح في نبرةِ الصوت وتعابير الوجه، ثم قالت بثقةٍ هادئة، دون أن ترفع صوتها:

- «مرحبًا يا سارة، وجودُكِ يعني أنَّ ندى احتاجت لمن يمنحها القوَّة في لحظةٍ لم تستطع أن تواجه فيها، لكنكِ أيضًا جزءٌ منها، لستِ غريبة عليها، روحُكِ تمتدُّ داخلَها كأنَّك ظلُّها الذي لا ينفصلُ عنها».

وبعد أن أغمضت الفتاة عينيها فجأة ثم فتحتهما بارتباك، عادت إلى صوتها الطفولي المرتبك:

- «هل كنتُ أتكلَّمُ للتو؟ لا أتذكَّرُ شيئاً».

مالت مجدولين للأمام وصوتُها أكثر دفئًا:

- «اسمعي يا ندى، ما تمرِّين به يُسمَّى اضطراب الهويَّة الانفصاميَّة، عقلُك خلق أكثر من شخصيَّة ليحميكِ من ألمٍ قديم، وكلٌّ واحدةٍ منها تحملُ جزءًا من قصَّتك، لكن يمكننا أن نعمل معًا لنجمع هذه الأجزاء من جديد.

سنخوضُ جلساتٍ نقتربُ فيها من الذكريات التي أثقلت كاهلك، بدل أن تواصِلي الهروب منها،

وعندما تنكشفُ ستتعلَّمين كيف تسمحين لندى وسارة أن تجلسا معًا بسلام داخل عقلك، لا أن تتصارعا. قاطعتها ندى بسؤالها المرتبك:

- «من سارة يا دكتورة، وما علاقتها بي؟»

أجابتها مجدولين بصوتٍ دافئ:

- «لا تقلقي، إنَّها شخصيَّة أوجدها عقلُك لتحميك في لحظات ضعفك، ستصبحين أنت القائدة الوحيدة، وخلال هذا التدريب العلاجي، سأصفُ لك دواءً بسيطًا يخفِّفُ من قلقِك وتوتُّرك، لن يُسكت الأصوات، لكنَّه سيمنحُكِ فرصة أن تستعيدي السيطرة عليها بنفسك».

رفعت ندى رأسها، والدموع تلمعُ في عينيها، وهمست برجاء:

- «هل يمكنُ أن أعيشَ يومًا واحدًا دون أن يستوطن الخوف رأسي؟»

ابتسمت مجدولين بثقة، وقالت:

- «نعم، الأمرُ يحتاجُ صبرًا ووقتًا، لن يختفي كلُّ شيءٍ فجأة، لكنَّه سيتغيَّر، وستعودين أقوى مما كنتِ».

سقطت دمعة على خدِّ ندى، لكنَّها لم تمسحها، فقد بدا أنَّها للمرَّة الأولى تُصدِّق أنّ هناك احتمالًا للشفاء.

نهضت ببطء، وشكرت مجدولين بنظرةٍ صامتة، وغادرت بخطواتٍ متردِّدة.

بقيت مجدولين بعدها في صمت، أغلقت الملف ببطء، وشعرت أنَّ كلمات المريضة ما زالت تتردَّدُ في أذنها:

- «هل يمكن أن أعيشَ يومًا بلا خوف؟»

لكنَّها لمحت في زاوية الغرفة خيطًا أسود ينسابُ على الجدار ويتلوَّى كأنَّهُ يريدُ أن يمدَّ جذورَهُ داخل المكان. تجمَّدت أنفاسُها للحظة، ثم أغمضت عينيها وأمرته في داخلها بصوتٍ حازم لم تعهده من نفسها:

- «ارحل، مكانك ليس هنا».

وعندما فتحت عينيها اندهشت بانكماش الظِّل وتلاشيه.

ارتجفت أصابعُها، لكنَّها لم تكن ارتجافة الخوف المألوفة، بل ارتعاشة قوَّةٍ هائلة وغريبة شعرت أنَّها تسري في عروقِها. قوَّةٍ لم تعرفها من قبل، كأنَّها تحملُ في داخلِها شيئًا من ذهبه بقوَّتِها النورانيَّة، وصدًى من شرهوت بقوَّة أوامره القاطعة التي لا تقبلُ النقاش.

ارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ صغيرة، ممزوجة بالحيرة، وهمست لنفسها:

- «من أنا؟ هل أصبحتُ مرآةً بين نورٍ يُداوي وظلامٍ يُؤمَر؟»

الرسالة من عالم الظلال وبذرة الفصل القادم ..

لم تعد الكوابيس تزورُ مجدولين، ولم تعد تستيقظ مذعورةً كما اعتادت، فقد تغيَّر شيءٌ ما في داخلِها منذُ لحظة المواجهة الأخيرة، فأصبحت قادرةً على طرد أيِّ ظلٍّ يجرُؤ على التسلُّل إلى عالمها، والظهور في عيادتها أو بيتها، تكتفي بأن تهمس في قلبها:

«ارحل»، فينكمشُ الظِّل ويتلاشى، كأنَّهُ دُفع خارج حدودها بإرادةٍ لم تعرفها من قبل.

كانت تدرك أنَّ هذه القوَّة ليست هبةً خالصة، أو نورًا نقيًّا، فهي طاقةٌ هائلة من النُّور والظَّلام، وسلطةٌ لا تُشبهُ روحها، كأنَّها انعكاسٌ لما تبقَّى من «ذهبه»، وما انكسر من «شرهوت».

ورغم هذا التماسُك الظاهري، فقد ظلَّ في أعماقِها صوتٌ خافتٌ يهمس:

- «ما زال هناك شيءٌ لم يبدأ بعد..».

وفي أحد الصّباحات، وبينما كانت مجدولين ترتِّبُ ملفَّات الجلسات المقبلة، طرقت وعد الباب ثم دخلت بهدوئها المعتاد قائلة:

- «دكتورة، الحالة التالية موجودة، اسمه ناصر».

أومأت لها مجدولين بالموافقة، ودخل ناصر بعد لحظات.

كان شابًّا أنيق المظهر، هادئ الملامح أكثر مما ينبغي، في عينيه الداكنتين بريقٌ ذكي، لكنَّه يلمعُ ببرودةٍ مقلقة. جلس أمامها بثبات وقدَّم نفسه، ثم قال بصوتٍ ضعيف، كأنَّه يبوحُ بسرٍّ خطير، أو يتلو تعويذةً قديمة:

- «أعاني يا دكتورة من أحلامٍ غريبة، لا تشبهُ أيَّ شيءٍ مررتُ به في حياتي. أرى نفسي واقفًا عند بئرٍ قديمة، وسط صحراءَ مهجورة لا يصلُ إليها أحد، وهناك أصواتٌ تناديني من أعماقِها، تتحدَّثُ عن القوَّة، والمعرفة اللتين لا يملكُهما البشر، عن خلود منِ يجرُؤ على دفع الثمن».

ارتجف قلب مجدولين، وتسلّلت برودةٌ بطيئة إلى سائرِ جسدِها، فهذه الكلمات مألوفة، سمعتها من قبل في عالمٍ آخر، لكنَّها قاومت وحاولت أن تضعَ تبريرًا عقليًّا، وأن ترى فيه مجرَّد اضطرابٍ نفسيٍّ جديد.

لكن شيئًا في صوته، ونظراته، وحضوره، كان ينسفُ كلَّ محاولة تفسير.

رفع ناصر عينيه نحوها، وواصل بنبرةٍ أثقل، يختبرُ استيعابها:

- «وفي كلِّ حلم، أسمعُ همسًا يرُدِّد: سيِّدُ الظَّلام لم يمت،

بل يجمعُ قواه ليعودَ أقوى من ذي قبل، ويستردَّ مملكته، ويفتحَ بوَّاباتٍ، لم تُفتح بعد».

تسارعت أنفاسُها، ونظرت إلى فنجان القهوة أمامها، ولم تستطع أن تمدَّ يدها إليه، فقد تصلَّب لسانُها في حلقِها، وارتفعَ صوتُ النَّبض في أذنيها كأنَّ قلبها يقرعُ باب هاجسٍ قديم.

وانحنى قليلًا للأمام، وصوتُه أصبح أكثر حدَّةً وقربًا:

- «قولي لي يا دكتورة، هل شعرتِ يومًا أنَّ شيئًا في داخلكِ يتغذَّى على خوفك؟

أو أنَّ زهرةً غريبة لا تنمو إلا حين ينزفُ قلبك؟»

اهتزَّ جسدُها بعنف، وتحرَّكت يدُها دون إرادتها نحو سطح المكتب، كأنَّها تبحثُ عن شيء يثبِّتها، لكنَّها تجمَّدت وشهقت حين رأت على معصمِها رموزًا باهتة من حبرٍ قديمٍ تعرفهُ جيِّدًا، تتوهَّجُ ببطء. إنَّها نفسُها النُّقوش التي كانت على الختم الأسود، ونفسُه الأثر الذي تركته زهرة الكرز على جلدها من قبل، والتي ظنَّت أنَّها اختفت إلى الأبد، لكنَّها أدركت أنَّها كانت ترقدُ تحت جلدها.

همست بصوت مرتجف، خرج من فمها بصعوبة:

- «من أنت؟»

ابتسم ناصر ابتسامةً باردة، وفي لحظةٍ خاطفة تغيَّر صوتُه، وأصبح مزدوجًا، كأنَّ هناك من يتحدَّثُ على لسانه، كان فيه صدًى من صوت شرهوت، يهمسُ من مكانٍ سحيق:

- «بعض الأبواب يا دكتورة، لا تُغلق أبدًا، بل تنتظرُ المفتاح المناسب فقط، والآن المفتاحُ بين يديك، اللَّعبة لم تنته، لقد بدأت الآن، أنتِ المفتاح يا ذهبه».

اتَّسعت عيناها، وزاغ بصرُها نحو الجدران التي ضاقت فجأة، كأنَّها تنكمش حولها. تلعثمت:

- «ماذا قلت؟!»

أجابها بصوتٍ عميق، كأنَّ الصحراء كلَّها تتكلَّمُ من خلاله:

- «أنت تعرفين، لقد زُرعَ في داخِلِك شيءٌ قديم. منذُ لحظة اندماج القلادتين معًا داخلك، وأثرُ الزهرة لم يكن إلا رسالة، والختم الذي اعتقدتِ أنَّه انكسر ليس سوى البداية، وما يسري في دمك الآن ليس لبشرٍ البتة، إنَّه ظلٌّ ينتظرُ أن يُروى بالدم».

أغمضت عينيها واختنق صوتُها، وغاصت في صمتٍ كثيف، وأصبح الهواءُ أثقل من أن يُستنشق. لم تجد إلا دعاءَها الذي يثبِّتُها دائمًا، تمتمت به كمن يتمسَّكُ بحبلٍ من نور:

- «بسم اللَّه على قلبي، حتَّى يسكُنَ ويطمئن».

هدأ نبضُها، واستعادت السيطرة على أطرافِها المرتجفة، لكنَّها حين فتحت عينيها، كان ناصر ما يزال جالسًا، يبتسمُ ببرودٍ شيطاني:

- «سنلتقي قريبًا، يا حارسة الختم».

وفي طرفة عين اختفى، وبقيت مجدولين وحدها، تحدِّقُ في الفراغ، والرموز على معصمها تلمعُ للحظة قبل أن تختفي من جديد.

كانت العيادة كما هي، الأوراقُ على الطَّاولة، والسَّاعة على الحائط، والصمت في الأرجاء، لكنَّ عقلها لم يكن كما كان، بل يصرخُ بأسئلةٍ مرعبة:

- «ما الذي عاد؟

وهل بُعِثَ من رماده؟

وهل أنا ما زلت نفسي، أم أنَّ شيئًا آخر قد ولد بداخلي بعد تلك المعركة؟

ما الذي كان في الزهرة حين حرقتها اللعنة؟»

ولكنها كانت تعلمُ في أعماقها أنَّ ما جرى ليس ختام الحكاية،

بل شرارة فصلٍ جديدٍ لم يُكتب بعد.

وحين نظرت إلى معصمها، لم ترَ الرموز فقط، بل شعرت أنَّ بشرتها تنبض وتتنفَّس، وتحت جلدها كائنٌ حيٌّ يتربَّص.

وفي صمت العيادة الثقيل، دوى صدى صوت خافت، يشبه همس ناصر، وصرخة شرهوت.

كان أقرب ما يكون إلى صدى قلبها نفسه:

- «الختم لم يكسر، إنَّه أنتِ».

ارتجف قلبُها، وانفرجت شفتاها بابتسامةٍ مرتجفة تحملُ في طيَّاتها خوفًا غامضًا، بينما اتَّسعت عيناها كأنَّها تواجهُ الموت وجهًا لوجه، لا كخصم، بل كرفيقٍ غامض يميل إليها ليبثَّ في أذنها أسرار البداية.

- «لم تعودي كما كنتِ، وما ينتظرك ليس كابوسًا جديدًا، بل عالمٌ كاملٌ من الظِّلال، ينتظرُ أن

تفتحيه بنفسك».

رسالة من شرهوت:

- «هل ظننتِ أنني سقطتُ إلى الأبد؟

كلا يا مجدولين أنا لا أسقط، بل أعودُ بشكلٍ آخر ...

الزهرة كانت بذرتي، والقلادة لم تنكسر، بل عادت إليَّ من خلالك.

ما يسري في دمك ليس طُهرًا خالصًا، بل ظلِّي، وأنت الآن -دون أن تدركي-

أصبحتِ بابًا لعالمٍ اسمه: «مملكة شرهوت».

ملك الكوابيس وحارس البوَّابة.

قريبًا سنعلم ما الذي كتبتهُ مجدولين بدمها دون أن تدري.

الحمدُ لله دائمًا وأبدًا ..

«وبسم الله على قلبي حتَّى يسكُنَ ويطمئن».

الختم الكرزي ..